رواية

كلّ عام
وأنتَ حبّي
الضائع

غيــداء طــالب

نوفل

رواية

كلّ عام وأنتَ حبّي الضائع

غيداء طالب

نوفل

صدرت عام 2014 عن **نوفل**، دمغة الناشر هاشيت أنطوان

سنّ الفيل، حرج تابت، بناية فورِست
ص. ب. 11-0656، رياض الصلح، 2050 1107 بيروت، لبنان
info@hachette-antoine.com
www.hachette-antoine.com
www.facebook.com/HachetteAntoine
twitter.com/NaufalBooks

تصميم الغلاف: **معجون**
صورة الغلاف: **© Ilona Wellmann/ Trevillion Images**
تصميم الداخل: **ماري تريز مرعب**
متابعة النشر: **رنا حايك**

ر.د.م.ك. (النسخة الورقية): 978-614-438-168-7
ر.د.م.ك. (النسخة الإلكترونية): 978-614-438-169-4

إلى الربيع الذي لا يزال يزهر في قلبي كلّ يوم، فتورق له أغصان عمري حبًّا...
وإلى كلّ القلوب التي توارى فيها ذات يومٍ طيف حبٍّ دافئ...
إليك ربيع...
أهدي كلّ هذا الحبّ...

رجعت الشتويّة... ضلّ افتكر فيّي

1

25 نوفمبر 2013، عامٌ على الذكرى...

ها هو المطر... عرّابه الأوحد وصديقه الأوفى. كانا يرحلان دومًا معًا، وإذا ما عاد هو، عاد المطر، مباغتًا كلّ النهايات.

ها هو المطر... لطالما تأبّط ذراع الحبّ، وتتبّعا خطواته أينما ذهب، ولطالما ظننت أنّها لن تمطر أبدًا بعد رحيله، وأنّ مزن العمر قد نضبت مذ غادرني وجهه. ولكن، للمطر في قصتي معه أكثر من بداية. فهل سيهدي إليّ اليوم أيضًا حكايةً جديدة؟

ها هو المطر، مطره، قد جاءني على عجل، يطرق بكفّه زجاج ذاكرتي المهشّم، وينثر عبر شقوقه بعضًا من رذاذ حضوره.

ها هما عيناه تهطلان أمامي بوداعة، وتنظران في عينيّ وكأنّهما تنتظران جوابًا.

فبماذا تراني سأجيبه إذا فكّر بالعودة من جديد؟

أنا التي أنضجني الحقد فوق نار انتظاره الحارقة، ثمّ جاءت عيناه وأنستاني في لحظة واحدة كلّ تاريخ الألم. ماذا عساي أن أجيبه إذا ما عصف من جديد في قلبي، وفي سمعي، وقال لي «هيّا

افتحي، فلقد مللتُ المسافات! هيّا افتحي فلا أمرّ من هذا الفراق».

أتراه يظنّ أنّي سأفتح له باب قلبي على مصراعيه من جديد، وأقول له «هيا ادخل! لقد طال بك الغياب؟!».

* * *

هكذا بدأت الحكاية...

كانت الثامنة مساءً بتوقيت أول غيثٍ في نوفمبر 2012. وكنت أقف خلف زجاج نافذتي، أراقب ذلك الفرح الغريب الذي تصنعه زخّات المطر بكلّ الأشياء المحيطة.

تراه يذكر كم مرّةً ردّدتُ على مسامعه أنّه يشبه المطر إلى حدٍّ بعيد، بحنوّه، بدفئه، بسخائه، وبعذوبة الفرح الذي كان يتركه أينما يحلّ؟

كنت أجالس ذلك المطر الزائر، عندما قرع باب بيتي ناطور عمارتنا. لم يكن حضوره مستهجنًا، إذ غالبًا ما كان يأتينا بخبرٍ عاجلٍ بين الحين والآخر، إمّا ليعلن عن تصليحاتٍ طارئة، أو ليطالب بدفعاتٍ مستحقة وأحيانًا غير مستحقة. لكنّه يومها لم يفعل، بل ألقى في سمعي جملةً واحدة، مشحونةً بالفضول والدهشة:

– سيدتي، ثمّة من يريدك في الأسفل، رجلٌ يزعم أنّه من أقاربك وأنّه لا يمكنه الصعود إليك.

– ألم يعرّف عن نفسه؟!

– لا، لكنّه ينتظرك في مدخل العمارة.

– حسنًا. سألحق بك.

لم أفكر كثيرًا، ولم أتوقّف أمام أيّ احتمال. تناولت مفاتيحي وهاتفي الجوّال، أغلقت الباب على مهل، وأسرعت الخطى باتجاه مدخل العمارة. ولكن، يبدو أنّه كان يلزمني الكثير من الدهاء لكي أفطن إلى مكر القدر الذي فاجأني في ذلك اليوم، وربّما كان ينقصني الكثير من الخبث أيضًا لكي أعي أنّه كان عليّ ألا أثق بالنسيان إلى هذا الحدّ.

تُرى ما النسيان؟ كيف يكون؟ ما تعريفه اللغويّ الدقيق؟ وما قاعدته العشقيّة التي يتّبعها العشّاق في حياتهم اليوميّة؟ هل تراني نسيت ماجد يومًا؟

هل كان استسلامي لرحيله المباغت تجسيدًا لذلك النسيان، أم كان انشغالي بأسرتي اليافعة هو السراب الذي أوهمني بأنّي قد نسيته حقًّا وبأنّه حتمًا لن يعود؟

وإذا به يعود، رغمًا عن أنف الزمن.

لم أعد أذكر أيّ تفصيلٍ آخر في ذلك المساء سوى أنّه كان يقف هناك، في مدخل العمارة، وعيناه تعانقان المطر. ظننت للحظاتٍ أنّني أحلم، أو أنّي أعيش كابوسًا لذيذًا. أيُعقل أن يعود بعد كلّ تلك السنين وكأنّه لم يرحل يومًا؟

كأنّ عمري كان يرقد في أعماق عينيه، لم يبرحهما لحظة.

لعلّي لم أستحضر لحظة رأيته أيّ وجهٍ آخر أو أيّ صورةٍ أخرى، سوى شبح ألمي القديم. فقد كان يقف أمامي من جديد، يخلع عنّي خمار نسياني ويعرّي ندوب ذاكرتي.

تسعة أعوام مضت وأنا أحاول أن أداري وجعي...

تسعة أعوامٍ وأنا أحاول أن أستبدل ذاكرتي بذاكرةٍ جديدة، لم تعبرها عيناه يومًا، لم تشوّهها يداه، ولم تشظِّها قسوته!

تكفيني ذاكرةٌ عقيمة أو حتى خاوية. تكفيني أيّ ذاكرة. لا يهمّ، لا يهمّ إن كان عبَرَها أحدٌ بعده، ولا يهمّ أيضًا إن كان تقاسمها الجميع عداه... عداه هو، هو وجعي الأجمل والأقسى، هو وجع الماضي الذي سكن قليلًا، حتى ظننتني شُفيتُ منه، وإذا به يستفيق فجأة، وكأنّه لم يفارقني لحظة واحدة...

* * *

ثمّ أفقت مذعورةً، بين ذراعيه.

لو أنّ أحدًا أخبرني بما حدث، أو تحدّث أمامي عن أنّ البشر قد يفقدون الوعي أحيانًا من شدّة الحبّ أو من شدّة المفاجأة لرؤية من يحبّون، لظننتُ أنّه يتحدّث عن مشهدٍ رومنسيّ في أحد المسلسلات التلفزيونيّة. إلّا أنّ ما حدث في ذلك المساء فاق كلّ توقّعاتي، وسلبني وعيي وتوازني.

وكيف لا أفقد وعيي وأنا أرى ماجد يقف أمامي بعد تسعة أعوامٍ، كذنبٍ منتصب الذاكرة؟ وكيف لا أسقط مغشيًّا عليّ ما إن تصطدم عيناي بشهب عينيه ثمّ تهويان سريعًا بين ذراعيه؟

نعم... ذراعاه اللتان لطالما حلمت أن أغفو وأصحو فوقهما، كانتا هنا، تطوّقانني في لحظة سقوطي المفاجئ، وتحتضنان ذهولي به.

كم تمنّيت أن أعرف ما كان شعوره حينما ألقى بي الذهول في أحضانه فجأة؟ كم تمنّيت أن يخبرني عن تلك اللحظات، عن خوفه، عن دهشته، عن فرحته!

أمّا أنا، فلا بدّ أنّي سأخبره يومًا. لقد مرّ زمنٌ طويلٌ على آخر بوحٍ بيننا، ومع ذلك سأخبره كيف انتحر الحبّ شوقًا في قلبي بعدما

أدخله غيابه سنّ اليأس، وكيف صُلب وجهه على جدران ذاكرتي لسنواتٍ عقابًا لي على جريمة حبّه. سأخبره بأنّي لن أنسى مشهد عينيه الدامعتين لحظة أفقت من غيبوبتي وأنا في أحضانه، ولن أنسى يومًا حنوّه وهو يمسح بيديه على شعري، ولهفته المجنونة وهو يناديني بصوته العذب الدافئ:

– ندى! حبيبتي ندى! أفيقي أرجوك.

هل كان لاسمي ذلك الوقع الموسيقيّ نفسه في غيابه؟ لم أعُد أذكر... لكنّي أعرف أنّ اسمي كان أولى الكلمات همسًا في فمه، كما كان اسمه في الماضي آخر الأسماء شدوًا في فمي.

فقط لو يعلم كم عذّبني شوقي لصوته، لهمسه، لارتعاش الحبّ على شفتيه! عندما كانت حروفُ اسمي تعبر حدودَها.

لست أدري كم دامت غيبوبتي آنذاك؟ دقيقة؟ دقيقتين؟ وهل كان ثمّة أحد غيرنا في مدخل العمارة في تلك اللحظة؟ هل كان الناطور شاهدًا على حرارة لقائنا؟ هل حاول أن يتدخّل لحظة سقوطي في أحضان رجلٍ غريبٍ لا يعرفه؟ وهل تراه اكتشف أني كنت ضحيّةً من ضحايا الحبّ، أم هو أخطأ في فهم قصّتنا، فأوغل عميقًا في بحر ظنونه؟ لقد شغلني حضور ماجد يومها لدرجة أنّي لم أفطن لكلّ تلك التفاصيل إلّا في ما بعد.

إلّا أنّي ما زلت أذكر تمامًا وجه ماجد لحظة فتحت عينيّ، وكيف كان الليل يتوسّد مقلتيه الحزينتين. واستغربت موجة السعادة التي غمرتني للحظات عندما شعرت بأنّي استطعت أن أسبّب حزنه كما صنعت ذات يومٍ بهجته. أسعدني أنّي استطعت أن أُبكيه، أن أذيقه كلّ نكهات العواطف بحلوها ومرّها، بعدما سقاني هو

برحيله كلّ أنواع الندم، وكلّ خلطات الألم. ووجدتُني أهمس بصوتٍ متقطعٍ يكاد يغيب لشدّة ضعفه:

– أنت؟ ما الذي جاء بكَ الآن؟

لم أجد في ما بعد تفسيرًا حقيقيًّا لعدم تلفّظي باسمه في تلك اللحظات. قد تفاجئنا أحيانًا قوّة مشاعرنا بردّات فعلٍ معاكسةٍ تمامًا لما كنّا نرغب فيه أو نتمنّاه. لست أدري إن كان ارتباك مشاعري سببًا في عزوفي عن مناداته، أم هو خوفي من استعادة حقّي ومتعتي في التلفظ باسمه، أو ربّما رفض حواسّي الاعتراف بأنّها لم تنسَه أبدًا. لست أدري، ولكنّي لم أتكلّم كثيرًا في ذلك المساء. صمتّ تاركةً ساحة الكلمات له وحده، ليملأها بما يشاء من الجمل التي قد خاطها مسبقًا على قياس طيبتي وسذاجتي.

كنت أظنّ أنّه سيحتاج إلى الكثير من الكلام، وإلى الكثير من المفردات الجديدة التي لم تسمع بها اللغة من قبل، لكي يتمكّن من الفوز بغفراني إذا ما عاد يومًا، ولكنّه اكتفى بمناداتي باسمي، وكأنّه متيقّنٌ من أنّه لن يحتاج إلى كلماتٍ أخرى ليستعيد «نداه»... كان يكفيه أن يعزف اسمي على شفتيه سمفونيّةً ثلاثيّة النغمات، بكثير من الدفء والإتقان وكأنّه أمضى تسع سنواتٍ وهو يتمرّن على أدائها لتأتي بهذه العذوبة وبهذا الاحتراف.

وفي النهاية، لم يطلب منّي سوى الصفح والغفران.

كان مستعدًّا لأن يقول أيّ شيءٍ، وأن يفعل أيّ شيءٍ في مقابل أن أصدّقه. أمّا أنا، فقد كنت مستعدّةً لفعل أيّ شيء قد يحميني من عواصف حبّه التي عادت على غفلةٍ من قلبي، والتي قد لا أتمكّن من صدّها طويلًا. فلا حلّ لها سوى أن أوصد أمامها عقلي وسمعي وقلبي بجدران من فولاذ.

تركته يتكلّم... ويتكلّم... ورحتُ أجمع أصداف كلامه لأرصف بها شواطئ وجعي، بعدما أغرقتها أمواج غدره في الماضي.

طوال حديثه، كنت ألمح الندم والشوق يطلّان من كلّ حرفٍ تلفّظ به، ويلوّحان لي علنًا بالراية البيضاء.

هو يزعم أنّه لم ينسني يومًا، وأنّه بحث طويلًا عنّي ولم يجدني، وأنّي ما زلت أحيا في كلّ ذرات وجوده. كان يظنّ أنّي سأصدّقه حتمًا، وسأرمي خلفي كلّ أوجاع الماضي.

أنا أيضًا ظننتني سأصدّقه وسأنسى، ولذلك هربت، ولم أصغِ إليه. تركته في دوّامة الاعتراف وحده بعدما طلبت منه شيئًا واحدًا فقط: أن يرحل... ألّا يفسد عليّ حياتي مرّةً أخرى، وأن يبقيني خارج دائرة أشواقه ومغامراته.

ربّما لم أكن استعدت كامل وعيي وأنا أتركه هناك وأمضي. وربّما لم أكن على وعيٍ أيضًا بما كنت أقول، لأنّ وقع عودته قد فاق قدرتي على التصديق أو التحليل. لذلك تركته ودخلت شقّتي، أترنّح ذهولًا ودهشة.

وقفتُ قرب النافذة، أراقب رحيله الصامت وأحاول أن أقنع نفسي بأنّ ذلك الواقف على قارعة الطريق هو «ماجد»، وأنّه كان هنا، معي، يستجدي الغفران.

وعندها فقط أدركت فداحة خسارتي...

فجأةً انهمرت الدموع على خدّيّ، ورحت أحدّق في العدم، وكلّ ما حولي صامتٌ إلّا المطر. لم يكن بمقدوري تصديق ما حدث. لقد عاد بعد تسع سنواتٍ ليطلب الصفح عن جنحةٍ «صغيرةٍ» اقترفها بحقّي ذات يوم، عندما أرسل إليّ ورقة طلاقي غيابيًّا وكأنّ ما كان

بيننا لم يستحقّ حتى عناء المجيء إلى بيروت ليضع عينيه في عينيّ ويقول لي بملء فمه إنّه ما عاد يريدني...

تشتّتت أفكاري، وازداد ارتباكي، عندما فتح زوجي باب المنزل ودخل. كان مرهقًا جدًّا بعد يوم طويلٍ من العمل المتواصل، ومع ذلك لاحظ توتّري وشرودي.

كان من البديهي جدًّا أن يلاحظ، فهو الذي تقاسم معي سنواتٍ ستًا، بكلّ أفراحها وغصّاتها، لا بدّ له من أن يلاحظ كيف يتبدّل وجه زوجته عندما يلمّ بها خطبٌ ما، وكيف تنفرج ملامحها عندما تداعبها بعض نسمات السعادة. لكن أكيد لم يخطر بباله مطلقًا أنّ كلّ هذا الارتباك البادي على ملامح زوجته سببه رجلٌ غيرُه. رجلٌ داس قبله بسنواتٍ عتبات أيّامي. اقتحم حياتي كالعاصفة ثمّ تراجع آلاف الخطوات إلى الوراء فجأة، من دون أيّ تمهيد، ورحل.

كم كنت أحتاج إلى أن أحدّث زوجي عن ماجد، عن عودته الصاخبة، عن الغفران الذي جاء يطلبه منّي، وعن النيران التي استعرت في قلبي إثر لقائه، ولكني جبُنتُ، ولم أجرؤ على مصارحته عندما سألني عن سبب كدري، بل اخترعت له، كما تفعل معظم النساء مع أزواجهن، بعض الأعذار الواهية...

كان يجدر بي أن أخبره بكلّ شيء، خصوصًا أنّه كان على علمٍ بخطوبتنا التي لم تدم سوى أيّام، بعدما عصفت بها رياح الغدر والضعف وأردتها على الفور... كما كان على علمٍ أيضًا بكلّ تفاصيل طلاقنا.

ولكن، يبدو أنّ ماجد لم يمت يومًا في قلبي.

فوحدهم أموات الحبّ يعبرون أحاديثنا بلا تكليفٍ أو اعتبارات.

وحدهم أموات الحبّ يمرّون على الجمل ولا يتركون أيَّ آثار ارتباكٍ أو قلق. أمّا ماجد، فلا يزال حيًّا في قلبي رغم الرحيل، لذلك لم يكن الحديث عنه سهلًا أبدًا.

كانت ليلتي تلك بألف ليلة، شعرت بأنّها لن تنتهي أبدًا، وبأنّ الصبح لن يطلع من جديد. خلد زوجي إلى النوم باكرًا، وتركني أجالس الليل وحدي، أنا والمطر...

أمضيت الليل في الصالة، على الأريكة. لم يغمض لي جفنٌ وأنا أفكّر به. كنت أستعيد مشهد عينيه الدامعتين، ثمّ أسترق النظر إلى الخارج مرّةً بعد أخرى لأرى إن كان لا يزال واقفًا على رصيف الجنون... ينتظر.

لقد مرّ وقتٌ طويلٌ على آخر مرّةٍ غزا فيها ذاكرتي بهذه الجرأة وبهذا الاندفاع. لعلّي نسيته أو ربّما حاولت تناسيه طيلة السنوات الماضية، خاصّةً بعد ولادة ابني حسن، الذي استحوذ وجوده على كياني برمّته وأنساني كلّ آلام الفقد التي رافقتني في كلّ مراحل حياتي.

تلك الليلة، دخلتُ غرفة حسن مرّاتٍ عديدة بحجّة التأكد من أنّه ينام جيّدًا، وأنّه دافئ، لم ينزع عنه الغطاء كما يفعل دائمًا، مع أنّي كنتُ على يقينٍ بأنّ كلّ شيء كان على ما يرام، وأنّه كان يغطّ في نومٍ عميق. كنت أبحث عن شيءٍ من الطمأنينة، وكانت خطواتي تقودني مباشرةً إليه.

شيءٌ ما في داخلي كان يأخذني إلى ابني كلّما عصف اسم ماجد ببالي، وكأنّ هذا الكائن الصغير هو حصني الحصين الذي سيحميني من جنوحي إلى ذلك الرجل.

أليست مفارقةً عجيبةً أن ألوذ بحجرة ابني في أقصى لحظات احتياجي للأمان، بدلًا من أن ألجأ إلى حضن زوجي مثلًا؟ وهل كانت حجرة حسن هي المنطقة الآمنة، التابعة لمنظمة عدم الانحياز والتي ستحميني من كليهما، زوجي وماجد، طرفَي النزاع اللذين لم يلتقيا يومًا، واللذين لم تكن بينهما أيّ صلة أبدًا... عداي أنا؟

وعلى الرغم من أنّي لم أعد أشعر بالوحدة منذ وقتٍ طويلٍ، فقد استعدت في تلك الليلة كلّ مشاعر الفقد وآلامه. تمنّيت لو أنَّ أمّي كانت هنا لأرتمي في أحضانها، لأذرف على صدرها دموعًا حبستها طويلًا، لها وحدها. دموعٌ بطعمٍ آخر لا يشبه طعم تلك التي نمطرها أمام الجميع.

لعلّي لم أفكّر بذلك قبل اليوم، ولكنّي أؤمن بأنّ البكاء ليس مشاعًا، بل ثمّة دموعٌ وُجدت لتراها أمهاتنا فقط، لأنّ الأم هي وحدها القادرة على مسحها وعلى بلسمة آلامنا دون أن تُشعرَنا بضعفنا وبخوفنا، ودون أن تضطّرنا لستر خجلنا أو التهرّب من أخطائنا. كم تمنّيت لو أنّ أمي كانت هنا، معي، لأخبرها كيف شعرت بأني أستردّ بعضًا من كبريائي وأنا أرى تلك الدموع في عينيه.

لماذا تراه بكى في ذلك المساء؟ سؤالٌ حيّرتني الإجابة عنه. هل كان يذرف دموع الندم على الظلم الذي اقترفه بحقّي ذات يوم؟ هل كان يبكي شوقًا لوجهٍ غادره قسرًا قبل تسعة أعوام ولم يتمكّن من نسيانه يومًا؟ أم هو لم يتوقع أن تسبّب لي عودتُه مفاجأةً بحجم وقوعي مغشيًّا عليّ بين ذراعيه، فإذا بحبّه الساكن يستفيق فيه رغمًا عنه، ويستدرّ دموعه؟

ازداد وقع المطر في الخارج، وتسارع نبضه في قلبي. وجدتُني على بعد خطواتٍ من الماضي. كان قريبًا جدًّا، كأنّه كان يغفو على أطراف ذاكرتي، ينتظر المطر لكي يوقظه من سباته الطويل.. شعرت برغبةٍ عارمة في أن أقف مع ماجد على ناصية الذكريات، نتأمّلها معًا، ووجدتني أنتشل صندوق ذكرياتنا الأسود من قعر الماضي البعيد، وأستخرج منه كلّ همسةٍ احتفظَ لنا بها، وكلّ مشهدٍ علق في زواياه منّا...

فقط لو يعلم كم كانت تستفزّني ذاكرتي عندما كانت تستحضره أمامي، وكم كان يضطهدني وجوده الخفيّ في معظم أفعالي وأفكاري.

لو يعلم كم مرّةً حاولت أن أتجاهله، وأن أكرهه، وكم مرّةً لعنته ولعنت أيّامي معه، وكم مرّةً فشلتُ في محوه من سجلّ ذاكرتي. ففي النهاية نحن بشر، محكومون بسلطة الذاكرة، لا قدرة لنا على تطويعها دفعةً واحدة، ولا سلطان لنا على كبح جماحها في داخلنا. كلّ ما يمكننا فعله هو أن نجاريها وأن نحني قلوبنا أحيانًا أمامها، لعلّنا نأمن شرّها، ونضمن أن تكفّ يدها عنّا قدر الإمكان. فلا أمرّ من ظلم ذاكرتنا الحيّة فينا!

لو يدري كم تستفزّني ذاكرتي الآن، في هذه اللحظة بالذات، لأن أعيش معه من جديد مشهد لقائنا الأوّل، وكيف أنّ رغبة جامحة تتملّكني في أن أذيقه بعض لسعات الحنين وأنا أسرد على قلبه مسلسل ذكرياتنا معًا!

هل تراه يذكر كيف بدأت قصّتنا ذات شتاء، تحت المطر؟ هل تراه يذكر يوم التقينا أوّل مرّة؟ ها هي ذي شهرزاده تستعدّ، لتسرد القصة الوحيدة التي ما زالت بحوزتها.

2

كان يوم لقائنا الأوّل ممطرًا جدًّا.

كنتُ قد بدأتُ العمل حديثًا في أحد فنادق طريق المطار في بيروت، موظفةَ استقبال تحت التدريب. صبيّة بثلاثةٍ وعشرين ربيعًا، لا ينقصها إلّا الحبّ، وبعض حنان، لتزداد حيويّة وبريقًا وتقبّلًا للقدر.

وكان هو، ضيف بيروت الشتويّ، وصديق أمطارها. يأتيها كلّما أتعبته الحياة وأسقمه الروتين، ولا يغادرها إلّا وقد استعاد قلبه مقدرته على الحبّ من جديد. لم يسبق لي أن تعرّفت إلى خليجيّين قبله، ولم أستوعب شغفه الدائم ببيروت إلّا في ما بعد.

يومها، كانت الساعة قد قاربت الثالثة بعد الظهر. دقائق وأبدأ العمل بدوام مسائيّ. كانت الطرقات غارقةً في نهرٍ من الأمطار التي لم تتوقّف منذ الصباح. وما إن ترجّلتُ من السرفيس حتى أغرقني المطر، في طوفان عينيه.

كان يقف على الرصيف، أمام الفندق، ينتظر سيّارة أجرة، تحت مظلّته السوداء. وما إن رآني أفتح باب السيّارة حتى اقترب، ورمقني بنظرةٍ دافئة وأنا أترك له باب العربة مفتوحًا لكي يدخل مكاني. شكرني بإيماءةٍ من رأسه وابتسامة من عينيه، واستدار.

أمّا أنا، فلم ألتفت إليه ثانية إلّابعد دخولي الفندق. وقفت أنظر إليه من خلف الواجهة الزجاجيّة.

كانت السيّارة قد تحرّكت للتوّ. ظننت للحظاتٍ أنّه هو أيضًا كان يتأمّلني من خلف النافذة، أو لعلّي توهّمت ذلك. إلّا أنّ ذلك المشهد لم يستوقفني كثيرًا. باشرتُ عملي بسرعة، ولم يخطر ببالي مجدّدًا إلّا حين رأيته عند المساء يفتح باب الفندق ويدخل، مرتديًا سترته الجلديّة السوداء. سرعان ما وقع نظره عليّ وهو ينتظر المصعد مقابل الكونتوار، فأومأ لي من جديد بابتسامةٍ محمّلةٍ بألف معنى ورحل. وتركني هناك، أنتظر المجهول.

في اليوم التالي، رأيته يتحدّث على هاتفه الخلوي وهو يعبر بهو الفندق شاقًّا طريقه وسط فوجٍ سياحيّ كان قد وصل لتوّه. كان يبدو على عجلةٍ من أمره. راقبته مليًّا من بعيد، ولفتني طوله الفارع وسمرته المميّزة. اقترب فجأةً من الكونتوار بعدما أنهى المكالمة، ثمّ نظر إليّ بكثير من الإعجاب والأدب، وطلب منّي سيّارة أجرة تابعة للفندق.

كانت لهجته الخليجيّة واضحة تمامًا، ومميّزة جدًّا. وما هي إلّا دقيقة واحدة حتّى غادر المكان مخلّفًا زوبعة عطرٍ في الأرجاء. لا أنكر أنّه أثار دهشتي وفضولي وإعجابي من اللحظة الأولى. فقد كان في طلّته ما يفوق الرجولة رجولةً، وما يفوق الجاذبيّة سحرًا.

وانطلقت في رأسي الأسئلة التي لم أتمكّن من تجاهلها، فحوّلتها لزميلتي. أخبرتني بأنّه يُدعى ماجد وبأنّه زبون الفندق منذ وقتٍ طويل.

رجل أعمالٍ كويتيّ الجنسيّة، لبنانيّ الهوى، طيّبٌ ومتواضعٌ إلى حدٍّ بعيد. وكان ذلك حقيقيًّا بكلّ تأكيد... ولعلّ أكثر ما آلمني في

قصّتي معه، هو صدمتي بأن تكون تلك النهاية الظالمة من صنيع يديه هو... نهايةٌ متعسّفة لا تشبه طيبته، ولا تقارب شهامته.

عندما عاد في المساء، كان الهدوء يخيّم في أرجاء الفندق، وكان عندي ما أقوله له. استوقفته لحظة، فاقترب منّي مبتسمًا وقال لي:

– نعم. هل ناديتني؟

– عفوًا سيّد ماجد، ثمّة متّصل طلبك قبل قليل، وطلب منّي رقم هاتفك الشخصيّ ولكنّي رفضتُ إعطاءه له. وقد حاولت الاتّصال بك لأخبرك لكنّ هاتفك كان مغلقًا.

– شكرًا لك. هل أخبرك من يكون؟

– نعم. قال إنّه يُدعى باسم غصن وقد ترك لك رقم هاتفه. تفضّل.

– شكرًا جزيلًا آنسة...؟!

– ندى.

– تشرّفنا آنسة ندى.

– تحت أمرك سيّد ماجد.

وانسحبت أمواج عينيه بعيدًا وتركتني على شاطئ التمنّي، أحلم به.

مرّ أسبوعٌ وأنا أفكّر فيه. لماذا هو؟ لماذا هو تحديدًا دون سائر النزلاء لفت انتباهي إلى هذا الحدّ؟ ولماذا كنت أنتظر مروره يوميًّا في بهو الفندق، لأسمع منه «صباح الخير» وكأنّها صلاةٌ، أو لغةٌ فريدة أشبه بشيفرة لا يتقن فكّ رموزها أحدٌ سوانا؟ لا أعرف.

أما هو... فلم يكن أقلَّ اهتمامًا منّي. لطالما وشت به نظراته، وخذله وميضها الذي كان يبوح لي بإعجابه.

لن أنسى أبدًا ذلك الصباح. كان يجلس قبالتي في ركن صغيرٍ في بهو الاستقبال يطالع الجريدة، ويتناول قهوته الصباحيّة، وبين الرشفة والأخرى كانت عيناه ترشفان بنهمٍ كلّ بريق الشهد الذي تغلغل في أحداقي، وكلّ بقايا الأسئلة التي علقت فيهما، ثمّ ترسلان إليّ بأجوبةٍ فوريّة شديدة الوضوح. ثمّ وقف مغادرًا، ولكن، قبل أن يمضي، أمدّني ببطاقة صغيرة تحوي رقم هاتفه، وجملة يتيمة: أنتظرك في مقهى "باي روك" عند الخامسة، لا تتأخّري...

تفحّصت البطاقة جيّدًا. قلّبتها أكثر من مرّة ولكنّي لم أعثر فيها على أيّ عبارة شكرٍ أو رجاء. لم يكن فيها سوى فعل نهي واحد، كثير الإغراء: «لا تتأخّري». تعجّبت من جرأته، ورحت أسأل نفسي إن كان إعجابي به مفضوحًا إلى هذه الدرجة؟ هل بدوتُ له فتاةً ساذجة أو سهلة؟ أم هو على ثقةٍ تامّة بأنّه الرجل الذي لا تُقاوم سحره النساء، وبأنّني سأذهب إليه بمجرّد أن يطلب منّي ذلك؟

وعلى الرغم من أنّي فتاةٌ كثيرة الفضول عندما يتعلق الموضوع برجلٍ فصيح العينين مثله، وعلى الرغم من أنّني كنت أتوق فعلًا لأن أجالس البحر معه وأستمع إليه، قرّرت عدم الامتثال لأمره... ولم أذهب.

لست أدري كم انتظرني يومها. ولم أتمكن من معرفة ردّ فعله على عدم حضوري لأن اليوم التالي كان يوم إجازتي الأسبوعيّة، فلم أذهب إلى الفندق. ولكن، سرعان ما شعرت بالندم عندما عدت إلى العمل صباح الأثنين، وفوجئتُ بأنّه كان قد غادر بيروت أمس، دون أن أراه.

تملّكني اكتئابٌ مفاجئ لا مبرّر له، وفقدت رغبتي بالبقاء في الفندق. تمنّيت من أعماقي لو أنّي التقيته في الـ«باي روك»، لو

أنّي ذهبت إليه في ذلك اليوم ولم أعاند رغبتي. إلّا أنّ شيئًا خفيًّا ظلّ يهمس لي بأنّه سيعود، وبأنّنا سنلتقي ثانيةً. كنت على يقين من ذلك.

مرّ أسبوعان على رحيلهما، هو والمطر. كان يمرّ بخاطري أحيانًا كوميضٍ يعبرني على عجل ويترك في أعماقي بعض شذرات الحنين. كلّ شيءٍ كان يبدو عاديًّا تمامًا في غيابه، حتى ظهرت عيناه ذات يوم، فاضطرب العالم من حولي.

ما إن رأيته يفتح باب الفندق ويدخل، حتّى رقص الدم في عروقي، كلّ عروقي.

قد أعجز عن وصف فرحتي في تلك اللحظة، ولكنّ مفاجأة قدومه أربكتني أيّما ارتباك، فتلعثمت الكلمات في فمي وارتجفت أناملي وأنا أملأ بطاقة حجزه وأناوله مفاتيح غرفته، فيما كان هو ينظر بنهمٍ في عينيّ، ويتوعّدني بالكثير من الأشواق والمزيد من المفاجآت.

عاد إذًا... وعادت الألوان ترتدي بهجتها من جديد.

غادرتُ يومها دون أن أراه، على الرغم من أنّي حاولت تأخير مناوبتي قليلًا، لعلّه ينزل من غرفته فألمحه، ولكنّه لم يفعل. كأنّه كان يتفنّن في طبخ اشتياقي على نار هادئة.

في الصباح التالي، وصلتُ الفندق بمزاجٍورديّ. كانت السماء تستعدّ لاستقبال المطر. رأيته يجلس بمفرده في ردهة الاستقبال مرتديًا ثياب الرياضة، يطالع الجريدة. مررتُ بمحاذاته وألقيت عليه التحيّة مرفقةً بابتسامة. فنظر إليّ وكأنّه يقول لي:

«ها أنت أخيرًا... أين كنت كلّ هذا الوقت؟».

وما هي إلا دقائق حتى رأيته يقف أمام الكونتوار مستغلًا خلوّ المكان من زميلتي المناوبة، ويقول لي بصوتٍ خافت وبهدوءٍ غريب:

– سأنتظرك اليوم أيضًا في «باي روك»، وفي الوقت نفسه. أرجو إلّا تدعيني أنتظر طويلًا لأنّي لم آتِ إلى بيروت هذه المرّة سوى لأراكِ أنتِ. عمتِ صباحًا.

أطلق عليّ رصاص كلماته وتركني ألملم جثث أفكاري وحدي، محاولةً التصدّي لجبروت سحره. حاولت استعادة كلامه في رأسي بعدما شكّكني في صحّة سمعي.

هل قال إنّه أتى من الكويت إلى لبنان من أجلي؟ أنا؟ فكيف إذًا لا أذهب إلى الروشة من أجله؟

يا لروعة الأقدار! من تراه يكون؟ ومن أين ساقه القدر إليّ؟

يومها، قرّرت إلّا أستعجل الأجوبة. سأنذر الصوم عن الكلام إلى أن ألتقيه، وعندها سأكون أنا المتحدّثة الوحيدة، عنّي وعنه.

أمطرت السماء برفق يومها. شكرتُها كثيرًا على حنوّها، لأنّها حاولت أن ترضي مزاجه، دون أن تفسد عليَّ فرصتي في أن أظهر أمامه للمرّة الأولى كما لم يرني من قبل.

أرخيت عليّ شالي الأسود فوق فستانٍ بلون الياقوت، صفّفت شعري الكستنائي القصير بسرعة، وانطلقت على أجنحة الحلم.

عندما وصلت إلى مقهى «باي روك» في ذلك اليوم، كانت الشمس تستعدّ للرحيل، لم يبقَ منها سوى بعض الظلال المتعبة.

كنت طوال الطريق مشغولةً به، أفكّر في الجنون الذي قادني إليه. تردّدت أكثر من مرّة في متابعة المشوار، وفكّرت مرارًا بالعودة من حيث أتيت. ولكن منعني من ذلك فضولي، وغلبتني رغبتي في

أن أكون معه، لمرّةٍ واحدة على الأقل، وفي أن أحظى بجوابٍ عن سؤالين يعربدان في رأسي منذ رأيته: من يكون، وماذا يريد منّي؟

لم أعبأ كثيرًا بزحمة السير التي كانت تلتهم الشارع المؤدّي إلى منطقة الروشة، ولا أذكر إن كان ذلك الطريق من اختياري أنا، أم أن السائق هو الذي قرّر بنفسه ارتياد الطريق البحري حينما قرأ في عينيّ أجواء اللقاء العاطفي المتوقّع.

وصلتُ المكان أخيرًا. غادرت سيّارة الأجرة بعدما عدّلت مكياجي واتّجهت نحوه. كان الجوّ لطيفًا بعض الشيء. دخلت المطعم وقلبي يرفرف في صدري لشدّة فرحتي. أمّا هو، فكان يجلس مقابل البحر، في ركنٍ منزوٍ في آخر المطعم، ينتظر. ولعلّه لاحظ ارتباكي وتلعثمي وهو يصافحني، ويستدرج عينيّ بمكرٍ للحديث عنه.

– شكرًا لحضورك، تفضّلي.

– شكرًا لك.

جلسنا وجهًا لوجه لأوّل مرّة. لم تكن تلك زيارتي الأولى للـ«باي روك»، ولكنها كانت الأحلى على الإطلاق. حاول أن يباغت الصمت المقبل علينا ببعض المجاملات، فقال لي مبتسمًا:

– تبدين مختلفة.

ابتسمت بلطف وعيناي ترقصان من الخجل حين لاحظت أنّ عينيه تتصفّحان سطور جسدي من الأعلى إلى الأسفل بخبثٍ لذيذ.

ثمّ أردف سؤالًا بديلًا عن حالة الطقس التي غالبًا ما يستعين بها الناس لتلافي الحرج أو لكسر حاجز الصمت.

– أرجو أنّك لم تواجهي زحمة سيرٍ في طريقك؟

– لا بأس. لقد باتت زحمة السير جزءًا من حياتنا.

ويبدو أنّه شعر بأنّ الجلسة ما زالت تحتاج إلى المزيد من المقبّلات فأضاف سؤالين اعتياديين إلى قائمة الأسئلة التحضيريّة.

– أين تسكنين؟

– في حارة حريك. على أطراف طريق المطار.

– أي قريبًا من مكان عملك.

– نعم. بينهما مسافة خمس دقائق تقريبًا.

– ممتاز.

صمتَ لثوانٍ قبل أن يضيف:

– ماذا ستحتسين؟

– كابوتشينو، لو سمحت.

نادى النادل بسرعة وطلب لنا كوبي كابوتشينو وكأنّه تعمّد أن يوحي لي بشيءٍ من التوافق الأوّلي في ما بيننا. ثمّ قال بعدما ساوره الصمت لحظةً وهو ينظر في وجهي:

– أنا سعيدٌ جدًّا لأنّك أتيتِ هذه المرّة. لقد انتظرتك هنا أكثر من ساعتين في المرّة الماضية. لم أتخيّل أن أعود إلى الكويت دون أن أراكِ.

– حقًّا؟! أنا آسفة. ولكنّي استغربت دعوتك لي. فأنت لا تعرفني.

– أنت مخطئة.

قالها ونبرة الثقة تطغى على صوته.

– أنا أعرفك تمام المعرفة. مذ رأيتك تنزلين من السرفيس في ذلك اليوم الماطر، شعرت بأنّي أعرفك منذ زمنٍ بعيد. كأنّنا تقاسمنا معًا حياةً واحدة، في زمنٍ ما، وفي مكانٍ ما. لست أدري... ولكنّي ألمح في عينيك عمرًا أضعته يومًا ولم أعثر عليه إلّا فيهما.

لم أستطع الصمود طويلًا أمام إغراء نظراته. أشحتُ بعينيّ بعيدًا عنه وعلت وجهي حمرة الارتباك والخجل. كانت تلك المرّة الأولى التي أنظر فيها إلى عينيه مباشرة. كانتا حالكتي السواد، وكأنّ ليل بيروت يقطن فيهما، بظلمته وضوضائه ودفئه وتمرّده. لم أعرف بماذا أجيبه، فأردفت قائلة:

– يمكن. بيخلق من الشبه أربعين. يمكن وجي مألوف بالنسبة إلك.

– لا، أبدًا، ليس لذلك علاقة بالموضوع. بعض الوجوه لديها قدرةٌ سحريّة على أن تبقينا في دائرة وجودها حتى وإن غابت عنّا، فترانا نظّل ندور حولها طواعيةً بلا مللٍ أو كلل وكأنّها نقطة ضعفنا. وأنتِ تنتمين إلى هذه الفصيلة من الوجوه.

– أنا؟ أظنّك تبالغ في مجاملتي.

– لا، أبدًا. ليست مجاملة. لعلك لا تدركين ذلك ولكنّها الحقيقة، صدّقيني. تخيّلي أنّني منذ التقيتك أسأل نفسي عن سبب الحزن الغريب الذي يكتنف نظراتك.

– وهل أبدو حزينة؟

– جدًّا. الحزن شعورٌ عصيٌّ على الكتمان. لا يمكننا أن نداريه مهما فعلنا. حتى ابتساماتنا التي نحاول أحيانًا أن نستره بها، سرعان ما تفضحنا، وتشي به وبنا.

– الحزن أمر بديهيّ في هذه الحياة. وهل ثمّة إنسانٌ سعيدٌ دائمًا؟

– حتمًا لا. فلكلٍّ منا نصيبه من الحزن. ولعلّ قيمة سعادتنا تكمن في مقدار الحزن الذي نتجرّعه، فكلّما كان حزننا أكبر كانت سعادتنا أثمن، وبالتالي تضاعف خوفنا من فقدانها.

– ألهذا طلبت منّي الحضور؟ لتحلّل أسباب حزني؟

– لست أدري. لن أبرّر دعوتي لك بأعذار قد تكون حقيقيّة وقد لا تكون. ولكن، صدّقي أو لا تصدّقي، منذ غادرتُ بيروت قبل أسبوعين، وأنا أحاول أن أتجاهل شوقي إليك. لقد لازمني وجهك أينما ذهبت، واستحوذت عليّ رغبةٌ عنيدة في التحدّث إليك وأن أكون معك، فوجدتني على متن الطائرة، أعود إلى بيروت ولا جدول أعمال لديّ سوى لقائك.

يا إلهي! لو أنّه يعلم كيف أسكرتني كلماته حينئذٍ! كيف حملتني عيناه على أجنحةٍ ورديّة وحلّقتا بي في أعالي الفضاء!

لو أنّه يعلم كم حاولت الصمود، وكم خشيتُ أن أضعف أمامه، فيزلّ لساني ويكشف له عن انجذابي المجنون إليه. ولو أنّي لم أحسن شدّ لجام كلماتي حينها، لاستدرجتني جمله المعسولة إلى اعترافاتٍ مماثلة. ولقلتُ له على الفور إنّي أنا أيضًا حلمتُ به، وانتظرته كما لم أنتظر أحدًا من قبل، لكنّني حاولت اختصار الجواب وتغيير الموضوع:

– أنتَ تفاجئني حقًّا بكلامك هذا. أخبرني، هل تأتي كثيرًا إلى بيروت؟

– نعم. أنا من عشّاق بيروت. أزورها باستمرار ولا أحتمل فراقها طويلًا.

– وهل من سرٍّ لهذا الارتباط؟

– لست أدري. لعلّ بيروت نفسها هي السرّ. ولا تفسير لديّ، بل إنّي كلّما حاولت تبرير إعجابي بها وانجذابي لها تورّطت في أسئلة أكبر وأعمق. وذلك تمامًا ما يحدث عندما نحبّ. تستهوينا الأسئلة التي لا جواب لها. لماذا فلان، ولماذا الآن، ولماذا أنا؟ ولا نجد تبريرًا

لكلّ ذلك. قد نجد أحيانًا تبريرًا للكراهية والنفور، ولكن ليس باستطاعتنا أبدًا تبرير الحبّ.

ابتسمتُ سرًّا في داخلي بعدما شعرتُ بأنّه يحاول، في حديثه، أن يلزم السير على رصيف الحبّ، لا يريد أن يحيد عنه...

ثمّ تابع كلامه:

– أتعلمين؟ أنت تذكّرينني بوالدي. لطالما سمعتُ سؤالك هذا على لسانه في السابق، ولطالما قرأته في عينيه كلّما كنت أشدّ الرحال إلى لبنان. كان يظنّ أنّي أتردّد دائمًا إلى بيروت بسبب ارتباطي بإحداهن هنا، وعبثًا كنت أحاول أن أشرح له. في النهاية، وجدت أنّ الحلّ الأمثل للإجابة عن تساؤلاته هو أن أصحبه إلى هنا. وبالفعل، حدث ما أردت. فلقد أتينا جميعًا إلى لبنان منذ أربع سنوات، أمضينا أسبوعين ربيعيّين هنا، ولم نغادر إلّا وقد وقع أبي أيضًا في غرام بيروت.

– جميل. أنتم إذًا عائلة مغرمة ببيروت.

– نعم، إلى حدٍ ما. أنا أرى أنّ علاقتنا بالمدن كعلاقتنا بالأشخاص تمامًا، نحن لا نعرف لماذا نقع في غرام شخصٍ دون آخر، كما لا نستطيع أن نفسّر سبب ارتباطنا الوثيق بمدينة دون أخرى، وقد نموت قبل أن ندرك سرّ السعادة التي تغمرنا بمجرّد وجودنا في هذا المكان دون غيره من الأمكنة.

– كلامك صحيح. فلطالما سمعت أمّي تردد مثلًا شعبيًّا عندما كانت تتحدّث عن الفأل الحسن وارتباطه بأشخاص وأمكنة قد نعبرها أو تعبرنا وتترك تأثيرًا فينا. كانت تقول: «الدني وجوه واعتاب». وكأنّ في الحياة وجوهًا نستمدّ منها السعادة وعتباتٍ وأمكنة تزيدنا تفاؤلًا وفرحًا.

– صحيح. وأنتِ؟ ألا ترغبين في السفر يومًا إلى الكويت؟ ربّما زاد بلدنا من رصيد تفاؤلك أو ربّما حمل لنا وجهك السعد.

ابتسمت للطفه وتابعت:

– ربّما. أنا لا أحبّ السفر عمومًا، ولكنّي سأسافر قريبًا إلى الإمارات.

– ولماذا الإمارات؟ فالكويت جارة الإمارات ونحن أولى بزيارتك.

– طبعًا. ولكنّي سأقصد الإمارات للعمل، فمنذ عامين يحاول أخي أن يقنعني بالاستقرار معه في دبي، وما زلت حتى الآن أقاوم الفكرة.

– لماذا؟ أقصد لماذا دبي؟ لِمَ لا تبقين مع أهلك في لبنان؟ ألست سعيدة في عملك؟

– بلى ولكن في الواقع، لم يعد لي أهلٌ هنا. لقد تُوفي والدي وأنا لم أبلغ الثانية عشرة من عمري، ثمّ لحقت به والدتي منذ سنتين، ولا إخوة لي سوى حسّان الذي يعيش في الإمارات منذ ثلاث سنوات تقريبًا وعبير التي تقطن مع زوجها في كاليفورنيا.

ما كدتُ أنهي جملتي حتى امتقع وجهه وتملّكه حزن مفاجئ. تقلّص الفرح في عينيه وأنا أخبره بيتمي ووحدتي ومرارة الفقد الذي يلاحقني منذ طفولتي، فاستحوذ عليه الصمت، خصوصًا أنّه قد حصل أخيرًا على جوابٍ لسؤاله، بلا جهدٍ يُذكر، واستنتج أسباب الحزن المدفون في أعماق عينيّ. فلا داعي لأسئلة أخرى.

– أنا آسفٌ حقًّا. سامحيني. لم أقصد أن أفتح جروحك.

– لا عليك. جراح الفقد لا تندمل فينا أصلًا، فهي نقشٌ أبديّ لا يزول.

– عذرًا على سؤالي ولكن مع من تعيشين الآن؟

– أعيش متنقّلة بين منزل والديّ ومنزل خالتي. عائلتنا صغيرةٌ جدًّا، فلم يكن لوالدي سوى أخ واحد لا نراه إلّا نادرًا. ولكنّي أتردّد كثيرًا على خالتيّ. أشعر بالراحة المطلقة معهما، وأشتمّ في وجودهما بعضًا من رائحة أمّي، وخصوصًا خالتي ليلى، فهي تعيش مع عائلتها في الحيّ نفسه، على بعد أمتار من منزلنا. لذلك تراني لا أفارق منزلها، وأستمتع بوقتي دائمًا مع ابنتها، كما أن خالتي متفهّمة جدًّا وهي تترك لي أحيانًا مساحة حرّية كبيرة، خاصّةً عندما يجتاحني الحنين لوالديّ ولمنزلنا، فآوي إليه من وقتٍ لآخر.

– في الحقيقة، منذ التقيك راهنت على أنّ لك حكايةً مع الحزن، ولكنّي لم أتوقّع أبدًا هذا الارتباط العميق بينكما. أنا آسف.

انتهى لقاؤنا في ذلك اليوم كما بدأ، هادرًا، شفّافًا، ومشحونًا بالنظرات المتّقدة. غادرته على مضض دون أن أفهم سرّ ارتياحي الشديد له الذي كان يمنحني أنا أيضًا شعورًا قويًّا بأنّي أعرفه منذ زمنٍ بعيد، وأنّ بإمكاني أن أبوح له بكلّ الأشياء التي لا أجرؤ ربّما على ذكرها، حتى لأقرب المقرّبين منّي.

جلسنا معًا ساعةً كاملة على عتبة الأسئلة المحرّمة، دون أن نطرق بابها. لم يحدّثني كثيرًا عن خصوصيّاته، ولم يكشف لي عن خبايا قلبه. كان يمرّ سريعًا على الحديث عندما نتطرّق إلى موضوع عائلته، ثمّ ينتعش ويستفيض فرحًا واتّقادًا عندما يخبرني عن أصدقائه وعن فترة دراسته في لندن وذكرياتها التي ستبقى معه إلى الأبد.

كنت ألمح في عينيه وميض حبّ كلّما جرفه الحديث إلى أيّام الجامعة. واستنتجت بغريزتي الأنثويّة أنّه لا بد من طيفٍ نسائي يطارده ويورّط عينيه بهذا القدر من البريق الحالم كلّما تحدّث عن

الماضي. فرجلٌ مثله، مكتمل النضج والرجولة، واضح الذكاء وكثير الطموح، لا بدّ من أن يكون شغل قلوب الكثيرات قبلي، ولا بدّ من أن يكون فخورًا بذلك كحال معظم الرجال عندما تُغرم بهم امرأة. فأين الحبّ من قلبه؟ بل أين تراه هو من هذا الحبّ؟

تهيّأت أكثر من مرّة لأسأله إن كان مرتبطًا أو متزوّجًا، إلّا أنّ شيئًا غامضًا كان يشدّني إلى الخلف ويسحب السؤال من بين شفتيّ. لعلّي خفت من أن يسيء فهمي ويحمله على غير ما قصدت.

حملتُ أسئلتي معي تلك الليلة إلى السرير، أخفيتها تحت الوسائد والشراشف كي لا يشعر بوجودها أحدٌ غيري، على الرغم من أنّي كنت وحدي، في منزل أهلي فقد خفت أن تظهر على وجهي نقاط الاستفهام وعلامات التعجّب فتفضح لقائي معه وتفشي سرّنا الجميل. حاولت أن أغفو، لكنّ فرحتي منعتني من أن أترك طيفه وحيدًا بقربي. آثرت السهر مع كلماته التي كانت تترك على وجهي زوبعة ابتسامات كلّما استعدتها بحذافيرها.

في صباح اليوم التالي استعجلت خطواتي نحو العمل. كنت أتوقّع أن يكون بانتظاري هناك. دخلت الفندق وعيناي تبحثان عنه في ركنه المعتاد ولكن، خابت ظنوني معه. ساورتني فجأة رغبة مجنونة في أن أرفع سمّاعة الهاتف لأقول له «صباح الخير، كيف أمضيت ليلتك؟» إلّا أنّ كبرياء الأنوثة منعتني، وخاصّةً أنّي فتاةٌ بتربيةٍ وعقليّة شرقيّتين حتى النخاع، تُنكران على الأنثى أن تجاهر بعواطفها، أو أن تبادر بأيّ اعتراف عاطفيّ قد يؤدّي إلى تدنّي قيمتها في عينيْ الرجل، فأخرستُ رغبتي وجلست أنتظر.

عند العاشرة تقريبًا، عاد. كان يبدو على عجلةٍ من أمره. نظر إليّ بدفءٍ عجيب، وأمطرني بابتساماتٍ مرتبكة، لكنّه لم يتوقّف للحديث

معي، بل صعد السلالم باتجاه جناحه في الأعلى، وتركني عند الكونتوار، أضرب أخماسًا بأسداس، وأحلّل أسباب صمته واستعجاله. وما هي إلّا دقائق حتى رأيته يطلّ من المصعد وفي يده حقيبته. ثمّ اقترب منّي وقال لي بصوتٍ خافت:

– كنت أرغب في أن أمضي اليوم أيضًا برفقتك، ولكنّي سأعود الآن إلى الكويت لأمر طارئ. لست أدري. أشعر بأنّ القدر يطاردني ويحاول، كلّما اقتربت منك قليلًا، أن يزجّ بي في معركةٍ مع المصادفات.

– خير إن شاء الله؟ عسى أن تكون الأمور على ما يُرام سيّد ماجد.

– إن شاء الله خير. أرجو إلّا أكون متطفلًا إن طلبت منك رقم هاتفك الجوّال. فقد لا أتمكن من العودة سريعًا إلى بيروت، وأظنّني سأحتاج لأن أشحن قلبي بصوتك من حينٍ لآخر.

لا أدري بماذا شعرتُ وأنا أمدّه بأرقامي الستة. رمّمتُ ابتسامتي حين رأيت عينيه تتحسّسان وجهي وشعري وكلّ سنتيمتر في جسدي، ثمّ تبتسمان لي بمحبّة، وترحلان. ارتعدت فجأةً وأنا أراه يستقلّ السيّارة ويبتعد، كما لو أنّي لمحت شبح الفقدان ينتصب خلفه ويلوّح لي. يا إلهي كم كنت أخشى فقدانه!

تُرى ألهذا فقدته؟ ألأنّني بالغت في حرصي عليه، ورهنت سعادتي بوجوده؟ أوليس من الحكمة إلّا نتشبّث كثيرًا بمن نحبّ حتى لا ينازعنا القدر عليهم ويخطفهم منّا على عجل؟ فلقد علّمتني الحياة أنّنا على قدر حرصنا على استبقاء بعض الأشياء أو الأشخاص معنا ولنا، يكون فقداننا لها ولهم سريعًا ومباغتًا.

رحل ماجد يومها ولم يترك لي سوى جملة واحدة بقيت ترنّ في أذني لفترة طويلة: «في أمان الله».

تتابعت بعد ذلك الأيّام ولازمها الروتين القاتل. رحل الشتاء، ثمّ رحل المطر، ولم يتّصل أحد. بدأت شمس الربيع تبزغ في صباحات بيروت، وبدأ الأقحوان يفترش الحقول الدافئة، وماجد لم يتّصل.

رحت أتساءل أحيانًا إن كان لقاؤنا في «باي روك» هو الذي استعجل رحيله عنّي. فكّرت بأنّه قد يكون رجلًا شرقيًّا إلى الحد الذي يقيس فيه استقامة المرأة واحترامها لنفسها بقبولها أو رفضها لقاءً مع رجلٍ غريبٍ في مكانٍ عام، مع أنّه لم يبدُ كذلك أبدًا. ثمّ شردت أفكاري في مكانٍ بعيد، وحاولتْ إقناعي بأنّه قد يكون نصب لي فخ دعوته إلى «باي روك» فقط ليختبر اندفاعي وسرعة وقوعي في شباك رجل، لكي يكون رحيله مبرّرًا أمام نفسه إذا ما أنّبه قلبه على قسوته وعاقبه سلطان الشوق.

وعلى الرغم من أفول نيسان، ظلّت نحلات الأمل تحوم في بستان قلبي وتقول لي بأنّ موعد الشهد قريب وأنّه سيعود حتمًا، ولم يكن لقلبي من خيارٍ سوى أن يصدّق ذاك الأمل. وذات صباح، جاءني صوته على وشاحٍ ربيعيّ ليوقظني من عزّ نومي ويهدي إليّ بعضًا من شمس الكويت الدافئة.

– ألو...

– اشتقتكِ كثيرًا...

ثمّ انتهى الكلام. وكأنّ هذه العبارة هي نقطة ضعفي التي لن أُشفى منها أبدًا.

حتى اليوم لم تهزمني عبارة حبّ كما هزمتني كلمة «اشتقتك». لطالما أروتني حتى التخمة، وأغنتني عن كلّ ما تلاها

من كلامٍ وجمل. لكأنّها عبارة سحريّة، مغناطيسيّة الحروف، تختصر كلّ مشاعر الحبّ وتنال منّي مرّةً واحدة، كقبلةٍ دافئة ومتوحّشة في آن واحد، تخطف أنفاسنا وتبلغ بنا في لحظةٍ واحدة أعلى قمم العشق.

جاءت عبارته الهاتفيّة تلك مزيجًا من لهجةٍ لبنانيّةٍ في زيّ خليجي، أربكتني، وقلبت الوجود من حولي. فمنذ وقتٍ طويل لم أعد أصحو بهذا الكمّ من النشاط وبهذا البريق في عينيّ. تحدّثنا لعشر دقائق على الهاتف. أخبرني بأنّه في لندن في رحلةٍ طبّيةٍ مع والده، وأنّه سيعود إلى الكويت قريبًا. كان صوته محاصرًا بكثبان من الأشواق الساخنة التي ألهبت حديثه دون أن يشعر وأجبرتني على لملمة أنفاسي ببعض الاستراحات الصامتة بين الجمل.

بعد ذلك، صمت الهاتف لأيّام معلنًا عودتي للوحدة من جديد.

3

هل يحدث للحبّ يومًا أن يكون سخيًّا إلى الحدّ الذي يمنحنا فيه بطاقة سعادة برصيدٍ مفتوح، ولمدّةٍ غير محدودة؟ وهل يمكن لهذا الحبّ أن ينسينا فعلًا مرارتنا ويقلب موازين السعادة في أعيننا؟ أم هو مجرّد قناعٍ نصنعه بأيدينا على مقاس حزننا، لنخفي تحته بقايا جراح لم يبقَ لها متّسعٌ في قلوبنا؟ قناعٌ نرتديه لنجمّل به مظهرنا أمام أنفسنا، فنبدو لها بصحّةٍ أفضل وسعادةٍ أكبر.

ذات صباح، قرّر القدر أن يباغتني ويهديني فرحةً دون مقابل، بعدما أشفق على حزني ووحدتي. لم أفهم حينها أسبابه ودوافعه، مع أنّه يراني وحيدةً منذ سنوات ومع ذلك لم يكترث بي يومًا... فلماذا يبادر الآن؟

لعلّه أدرك مثلي أنّ الوحدة الحقيقيّة ليست بأن نعيش بمفردنا بين جدرانٍ أربعة، ولكن، بأن نشعر، وإن كنا محاطين بالآخرين، بأنّنا لا نساوي شيئًا في سجلّ حساباتهم، وبأنّنا نمرّ مرور الكرام على دروب ذاكرتهم. فترانا ننتظر ومع ذلك، لا أحد ينتظرنا. لا هاتف يدقّ للاطمئنان عنّا، ولا قلب يشهق لرؤيتنا.

في صباح يوم الفرح ذاك، أتاني القدر بشوشًا محمّلًا بعينيْ ماجد الجميلتين. كنت قد بدأتُ الدوام لتوّي عندما اقتحم وجهه قاعة الاستقبال في الفندق. أقبل عليّ مبتسمًا، ومشتاقًا. صافحني بدفء، وقال وهو ينظر إلى فنجان قهوتي المنتظر على طرف الكونتوار:

– شو؟ شايف حماتي تحبّني!

ابتسمت له دون أن أعرف ما الذي لم يبتسم فيّ حينها. كأنّ خلايا جسدي انكمشت جميعها وتوحّدت في ابتسامةٍ اختصرت كلّ اللهفة التي قد عرفها أو سيعرفها العشّاق يومًا. وما العشق إن لم يبح به جنون اللهفة؟

استقبلته ذلك الصباح استقبال الفاتحين المعشوقين. استقبالٌ واله النظرات يليق برونق حضوره. آه ما أروع حضوره! ما أروع الصباح عندما يبدأ من عينيه! عندما يشرق من خلف أهدابه!

أذكر أنّي سألته ذات مرّة عن سبب اختياره رحلات الطيران الليليّة كلّما نوى السفر إلى لبنان، فالمسافرون يتجنّبون ذلك النوع من الرحلات المرهقة في العادة. أجابني يومها بأنّ للصباح في بيروت نكهةً فريدة، تُشعره بانتعاشٍ عجيب، وأنّه لا يقاوم رغبته في أن يبدأ مشواره مع بيروت من الفجر، وكأنّه يخشى أن تفوته متعة الصباح معها.

اتّصل بي يوم وصوله ذاك ليطلب منّي لقاءً عاجلًا في أيّ مكانٍ أريد، وفي أيّ وقتٍ أريد. وبعد ساعتين وجدتني أجلس معه للمرّة الثانية في «باي روك»، وأمضي برفقته ساعتين من الوقت في أحضان الروشة.

استمرّت زيارته تلك للبنان أربعة أيّام. التقينا يوميًّا خلالها. كنا نتحدّث، نمشي معًا على شاطئ البحر، نحتسي القهوة حينًا ونبحر في عباب القلب على زورق الصمت أحيانًا.

كان وجوده معي لساعاتٍ فقط كفيلًا بأن يعوّضني عن كلّ مشاعر الأبوّة التي افتقدتها باكرًا مع رحيل والدي، مع أنّه لم يكن يكبرني كثيرًا، إلّا أنّه كان بحرًا يزخر بالدفء والحنان.

بدا لقاء اليوم الأول محفوفًا بالصمت، ذلك الصمت الجالس فوق ديناميت الاشتياق ينتظر أن تنفجر به عبوة الكلام. كان يحاول أن يتحدّث معي بلهجتي اللبنانيّة تحبّبًا، مع أنّي كنت أعشق لهجته الخليجيّة التي كانت تزيده رجولةً وسحرًا. وكنت ألاحظ كيف كانت عبارات الشوق تفلت من بين شفتيه بلهجته الأمّ بعفويّة رائعة وكأنّ كلام القلب لا يرضى بأن يُجمّل أو يُنمّق.

«ولهت عليج...»

يا إلهي! كم كنت أعشق هذه العبارة عندما كان يلاقيني بها وتنساب حروفها على شفتيه فينساب الوله في حنايا قلبي وأمتلئ افتتانًا به.

حدّثني طويلًا في ذلك اليوم عن عمله وعن سفره مع والده إلى لندن. كنت ألمس في كلامه شيئًا من الجفاء أو الفتور كلّما أتى على ذكر والده، وكأنّه شخصٌ لا يرغب كثيرًا في الحديث عنه، فيما تبتسم تعابير وجهه كلّما مرّت سيرة والدته أو أخته حمدى في الحديث.

لفتني ارتباطه الواضح بأخته حمدى تحديدًا دون سائر إخوته، وعندما سألته عن سرّ ذلك أجابني بأنّها شقيقته الوحيدة لوالدته

وقد عاشا متلازمين تحت سقف واحد، أما الآخرون فهم إخوته من زوجة أبيه الأولى.

كنت أحبّ كثيرًا حديث ماجد عن أخته حمدى وعن ذكرياتهما معًا. فقد كان يذكّرني بأخي حسّان وعلاقتنا الوطيدة منذ الصغر. لطالما كان حسّان مقرّبًا جدًّا منّي ومن أختي عبير. ولطالما احترمت رقيّ علاقتنا وارتباطنا وحنوّنا بعضنا على بعض.

في اليوم الثاني لزيارة ماجد للبنان، التقينا مساءً في مقهًى قريبٍ من الفندق. كنت أفوقه اشتياقًا صامتًا فيما كان يفوقني هو ارتباكًا لا مسوّغ له.

شعرت بأنّ خبرًا ما يلوح في عينيه ولكنّي لم أستطع التقاط موجاته، فانتظرت. وما هي إلّا دقائق حتى أخذنا الحديث ورمى بنا حيث لا ندري، في شباك البوح، فكان هو الفريسة الأخطر والأثمن.

بدأ اعترافاته أمامي بالخبر القنبلة الذي تخطّى دائرة توقعاتي، فأخبرني بأنّه متزوّجٌ بابنة عمّه وله منها ثلاثة أولاد. كادت كلماته تلك أن تفقدني حواسّي للحظات. فخبرٌ بحجم الصاعقة لا بدّ له من أن يصمّ أذنيَّ ويلزمني بالصمت القسريّ.

أعترف بأنّي كنت بمنتهى الحماقة عندما أوهمت نفسي بأنّ رجلًا مثله، في الثانية والثلاثين من عمره، وعلى هذا القدر الكبير من الوسامة والثراء والثقافة، قد يكون لا يزال عازبًا بانتظار توقّف قطاري في محطة قلبه.

يا لغباوتي! كيف لم أسأله عن ذلك؟ كيف انشغلت بإعجابي به ولم أسأله حين خطر ببالي أنّه قد يكون مرتبطًا؟ ولكن، ماذا لو كنت على علمٍ بزواجه منذ البداية؟ هل كنت سأتجنّب الخوض في حبّه؟ هل كنت سأمنع عينيّ من أن تحتفيا بقدومه وكأنّه آتٍ من عالم

الخرافات والأساطير العشقيّة، أم كنت سأقنع نفسي بأنّ من الخطر الاقتراب من حافة قلبه الشاهق، وأنّ عليّ أن أسير في عكس اتجاه رياحه؟

التزمت الصمت القاتل بعدما شلّت المفاجأة كلّ الكلمات التي ينبغي أن أصوغ بها أسئلتي، فيما تابع هو نشرة أخباره الزوجيّة.

حياة هي ابنة عمّه التي تزوّج بها منذ سبع سنوات بناءً على رغبة والديهما، وأنجب منها حصّة وشمّا وحمد، حبّات قلبه كما كان يصفهم دائمًا. وكمعظم الزيجات المفبركة على قياس القرابة والمصلحة المادّية، فقد كان ماجد يعاني من فراغٍ عاطفيّ مزمن لم تستطع حياة بكلّ حسنها وثروتها أن تملأ بعض جوانبه. ولعلّه فشل هو أيضًا في احتوائها بقلبه فظلّ البرود يحاصر علاقتهما ويفسد كلّ محاولات التقريب ما بين قلبيهما.

أتاني خبر زواجه كالصاعقة على غفلةٍ من قلبي، ليجهض حلمي الجنين قبل أن يولد، وأكتشف سريعًا أنّني كنت حبلى بحلمٍ غير شرعيّ من حبيبٍ مغصوب، غرّر بي دون أن يقصد ربّما، وسلبني أجمل لحظات الحلم.

كان ماجد يحدّثني عن زوجته وعائلته مستفيضًا في شرح تفاصيل ارتباطهما، فيما كنت أنا أبحث عن السبب الذي يبقيني معه حتى الآن. لماذا أبقى معه وأستمع إليه كالبلهاء بعدما علمت بما علمت؟ وهل نجحت حقًّا في تمثيل دور اللامبالية التي لم يهزّها خبر زواجه والتي لم تفكّر به كحبيب لحظةً واحدة من قبل؟ حتمًا لا... فقد كان كلّ حرفٍ في كلامه يعنيني، وكلّ تعبيرٍ يشي بحزنه يقتلني. حتى إنّي لم أعد أدري أيّهما كان الأقوى، شعوري بالحزن لأجله أم شعوري بالحزن على نفسي؟

ولكنّي أحبّه... أحبّه على الرغم من كلّ شيء.
هذا ما شعرتُ به قويًّا ومجلجلًا في تلك اللحظات، أكثر من أيّ وقتٍ مضى. ولعل معرفتي بوجود امرأةٍ أخرى تشاركني بحبّه هو ما أزاح الستار عن شعوري العميق بأنّي أحبّه وبأنّ لكلّ ذرّةٍ في الوجود معنى أروع، وطعمًا أشهى حينما أكون معه.
أوصلني ماجد في ذلك المساء إلى ناصية الشارع حيث أقيم، بعدما رفض التوقّف أمام العمارة كي لا يراني أحدٌ معه فتبدأ الألسنة بنسج القصص الوهميّة والرخيصة.
غادرته على مضض بعدما أمضيتُ ساعاتٍ معه، وقلبي يهمس له: «لا تذهب، ابق معي...»، فيجيبني بريق عينيه بعباراتٍ أشدّ بلاغةً وفصاحةً ممّا كان يقوله قلبي له.
ما إن دخلت غرفتي يومها حتى انهمرت الدموع على خديّ بغزارة الحزن الذي كان يملأ قلبي، وجلست أفكّر فيه وفي كلامه.
أتراه يتلاعب بي وبعواطفي؟ أتراه بارعًا في التمثيل إلى هذا الحد؟ وهل لديه نوايا خفيّة وبذيئة؟ لقد كنت أشعر بصدقه وهو يحدّثني عن ارتياحه لي ورغبته في البقاء معي دون أن يدري لماذا، فهل أكون غبيّةً وساذجة إلى هذا الحدّ؟
عاودني طيف زوجته الذي لم يغادر مخيّلتي منذ حدّثني عنها. رحت أرسم لها في رأسي صورًا مختلفة وغريبة. كنت أتخيّلها ثلاثينيّة، بوجهٍ أقرب إلى الجمود منه إلى القبح، وجسدٍ لا يعرف للأنوثة طريقًا، وصوتٍ باردٍ لا يصلح لاستمالة رجلٍ بدفء ماجد.
لا أدري لماذا لم أتعاطف كثيرًا معها على الرغم من وقوفي الدائم في صفّ المرأة عندما يتعلّق الموضوع بالحبّ والعواطف والزيجات التقليديّة الباردة، إلّا أنّي لم أتساءل كثيرًا عن طبيعة

موقفها من زوجها وعمّن قد يكون الأكثر مظلوميّةً في ذلك الارتباط، هي أم هو، أم كلاهما معًا؟ لم أتوقف عند كلّ هذه الأسئلة، ووجدتُني مباشرةً في الجهة الأخرى، حيث يقف هو.

تلك الليلة، لم أنم. رحتُ أفكّر في طبيعة ماجد وفي سرّ تقرّبه منّي.

أتراه كان يبحث عن زوجةٍ سرّيّة تخفّف عنه شعوره بالفراغ القاتل، أم عن عشيقةٍ تحرّره من قيود العرف التي كبّلته بهذا الزواج؟

هل وجد فيّ الصديقة التي يستطيع أن يتجرّد أمامها من كلّ أقنعته ويكشف لها عن مواضع خجله وضعفه وهفواته، أم هو عثر فيّ على ضالّته المنشودة، على تلك الأنثى المفصّلة على قياس رجولته، والتي لن تستطيع أنثى أخرى، وإن فاقتها جمالًا وفتنة، أن تُلبسه لبوس السكينة والحبّ اللذين يبحث عنهما منذ زمنٍ بعيد؟

لم أجد الإجابة الشافية وإن كانت الأمور واضحةً أمامي كعين الشمس. فأنا لا أصلح زوجةً له في السرّ، ولا عشيقةً طوع أمره، ولا أؤمن البتّة بالصداقة الحقيقيّة بين رجلٍ وامرأة. إذًا لا خيار أمامي سوى أن أكون الأنثى الشرعيّة التي يبحث عنها قلب ماجد، فإن صدق حدسي وطلب منّي الارتباط به، فسأكون أمام خيارين لا ثالث لهما أبدًا. فإمّا أن أوافق على الزواج به وأخالف قناعتي ورغبتي في أن لا أكون سوى الرقم الأول والأوحد في حياة زوجي، وإمّا أن أوليه ظهري وأرحل، وأعضّ على جرح الحبّ وإن مزّق قلبي.

قرابة الفجر، هدهد النعاس جفوني فاستسلمت له، وإذا بماجد يتخفّى خلف الحلم، ثمّ يقترب منّي، يعانقني، ويرافقني في رحلةٍ سريعةٍ على ضفاف الحبّ.

كان ثالث لقاءاتنا قصيرًا ولكن حارًا جدًّا.

التقيته صباحًا في الفندق. كان حلم الفجر لا يزال يسكنني ويجدّد رغبتي في عناقه. التقت نظراتنا من البعيد فبدا لي مرهقًا، ثمّ اقترب من الكونتوار حيث أقف، ولكنّه لم يحدّثني بل أخبر زميلتي بأنّه سيكون خارج بيروت في زيارةٍ للجبل ولن يعود قبل المساء، وأنّه يرجو إبلاغه إذا ما اتصل به أحدهم.

كان يحاول أن يبدو لامباليًا في حديثه فلم ينظر إليّ، وغادر الفندق دون أيّ كلامٍ خاصّ معي.

استغربت تصرّفه اللامبالي. لقد كنّا معًا يوم أمس. يحدّثني، يغازلني ويشكو إليّ ألمه العاطفي. والآن، ها هو يمرّ بقربي وكأنّه لم يرني. فهل استفاق من سكرته وأعاد النظر في شبه العلاقة التي بدأت تربط الواحد منّا بالآخر؟

هل اكتشف أنّنا أمام علاقةٍ لا أفق لها، فانسحب منها بسرعة؟ راحت الأفكار والظنون تتقاذفني، فقرّرت ألّا أكلّمه أبدًا. بعد ساعةٍ تقريبًا من مغادرته رنّ هاتفي مستعرضًا اسمه، فلم أجب. عاود الاتصال بي لاحقًا فلم أجب أيضًا.

وبقدر ما كان ذلك اليوم محبطًا ومنهكًا بالنسبة إليّ، كنت غاضبةً من ماجد. عندما وصلت المنزل كانت قواي قد خارت بالفعل ولم أنتبه كيف غفوت ومتى، ولكنّني استيقظت بعد ساعتين لأجد اتصالًا ثالثًا منه.

عاودني شيءٌ من الاطمئنان والثقة عندما شعرتُ بأنّه يريد فعلًا التحدّث إليّ، وبعد ساعة تقريبًا اخترقت هاتفي رسالةٌ محمومةٌ بكلماتٍ ثلاث: «أنتظرك في الخارج».

كتبت إليه معتذرة: «لا أظنّ أنّ الوقت مناسبٌ للقاء، ولا حتّى لمزاح».

وبعد ثوانٍ قليلة، رنّ الهاتف مستقبلًا صوته، ونبرة الشوق الغاضب تلهث في أنفاسه.

– ندى، أبي أتكلّم وياج ضروري، مو راجع الفندق لين ما تطلعين. أنطرج الحين برّا.

كانت الثامنة مساءً، وكان يصعب عليّ الخروج معه في مثل هذا الوقت، ولكن، أعجبتني لغة إصراره، وأغرتني نبرة الشوق التي تفوح من كلماته، فخرجت إليه على عجل، غير مباليةٍ بمظهري البيتي.

ركبت السيّارة معه وقلبي يتخبّط ارتباكًا وغضبًا وشوقًا. فابتسمت لي عيناه بعتب، وهو يطبع قبلةً على يدي، وينظر إليّ تلك النظرة الذكوريّة الماكرة ويقول:

– ولهت عليج.

ارتعش قلبي لعبارته وابتسمت له دون أن أعلّق، فتابع.

– شلون طاوعج قلبج تلطعيني طول هالوقت؟

– كنت مشغولة كتير اليوم. ما فضيت إحكي مع حدا.

– مشغولة؟ طيلة النهار؟ ولم تجدي دقيقة واحدة لتكتبي لي رسالةً هاتفيّة قصيرة؟ هل قصدتِ إبلاغي بأنّي قد تجاوزت الحدود التي وضعتِها لي وطلبتُ منك ما لا يحقّ لي؟!

كان في نبرته عتبٌ مكابر ولؤمٌ محبّب. فهل يكون هو من تجاوز فعلًا الحدّ الطبيعي لشبه العلاقة التي تربطنا؟ وهل سنحتاج الآن إلى ترسيم واضح لحدود علاقتنا، أم سنُضطرّ لأن نوقف هذا السيل الجارف من العواطف ونكتفي بما تمليه علينا علاقة الموظف مع

زبونه في العمل؟ ولِمَ لا أكون أنا من تجاوزتُ حدود المشاعر المسموح بها لموظفة استقبالٍ أخذها جنون الغيرة بعيدًا لأنّ أحد الزبائن في الفندق فاجأها بخبر زواجه غير المتوقّع، وفضّل الحديث مع زميلتها ولم يُعرْها أيّ اهتمام؟

أحرجني الجواب عن هذه التساؤلات، وألزمني باعترافٍ واحد أمام نفسي، لا ثاني له، وهو أنّي أحبّه وأزداد حبًّا له يومًا بعد يوم.

أجبته باقتضاب، لكن بحبّ:

– ماجد، بليز... ما تضغط عليّي...

– ندى، أرجوج، لا تتهرّبين من الجواب. إنت تحسّين إنّي تخطّيت حدودي معاج؟

– ما بعرف ماجد... ما بعرف... يمكن خايفة أتخطّى أنا حدودي معك.

ما إن تلفّظت بتلك العبارة حتى ذابت عيناه ولهًا وانسكبتا في نظرةٍ بلون العشق المشتعل. ثمّ امتدّت أنامله لتمسك بأطراف أصابعي المرتجفة، تحتضنها بدفءٍ عجيب.

– آه يا ندى... كم أتمنّى لو تفعلين! ندى، أنا أحبّك، أحبّك جدًّا.

في الحقيقة، لم أكن أتوقّع لكلماتي تلك أن تحمله إلى اعترافٍ بهذا الاندفاع، وبهذه الجرأة. ارتعدت، ابتسمت، ذهلت، لست أدري، ولكنّي أشحتُ بوجهي عنه وصمتّ. فقد فاجأني اعترافه. هو يحبّني إذًا. وأنا؟ هل أقول له إنّني أحبّه أيضًا، وإنّني أفوقه ربّما حبًّا وغرامًا وولهًا؟ ثمّ ماذا بعد ذلك؟ ماذا سيحدث في نهاية هذا النفق الذي زجّ بي الحبّ فيه دون أن يطلعني على خريطته، وعلى اتجاهات المخارج الممكنة منه؟ كيف أبادله مشاعر الحبّ وقد علمت بأنّه متزوّجٌ ولديه ثلاثة أبناء؟

لا أذكر بماذا فكّرت حينها ولكنّي صمتُّ بعدما شعرت بلسعات حرٍّ وحبٍّ وضعفٍ تلفحني، فلم أنبس ببنت شفة. أمّا هو، فقد أكمل قائلًا:

– ندى، أرجوج تحجي... ترى صمتج يذبحني.

ولكنّي لم أُجب بحرفٍ واحد، بل خفضت ناظري ولهيب الخجل يتصاعد من كلّ خلجاتي. كان ينظر إليّ كمن ينتظر حكمًا بالحياة.

وكمغامرٍ وصل باعترافه منتصف البئر ولم يعد بمقدوره التراجع إلى الخلف، كانت عيناه تبحثان في وجهي عن الـ«نعم» السحريّة التي ستمكّنه حتمًا من متابعة المشوار معي. فأمسك بطرف ذقني وجعل وجهي في مقابل وجهه وقال:

– ندى، أدري إنّي متزوّج وإن الكلام اللي بقوله الحين مو سهل عليج. صدّقيني. أنا أحبج وأبيج. وما يهمّني بالدنيا كلها غيرج.

– ماجد، انت عارف شو عم تقول؟

– ندى، حطّي عينج بعيني وقوليلي «ما أبيك... أرجوك وخّر عن طريجي» وما رح تشوفين رقعة ويهي بعد اليوم؟ هاه... قولي...

– ماجد، بترجّاك، حاول تفهمني... إنت عندك حياتك وعيلتك وأنا بفضّل عن جد إنّو نبقى أصدقاء، أصدقاء وبس.

فأفلتت منه نظرة لا تفسير لها وعلت صوته نبرة اعتراض.

– أصدقاء؟ ندى كلامج هذا مو منطقي. إنت تضحكين على نفسج ولّا عليّ؟ أنا أحبّج... تدرين شو يعني أحبّج؟ من شفتج شفت فيج الحبيبة... أرجوج افهميني...

أرعبتني كلمة الحبيبة تلك. كان لها وقع موسيقيّ رائع في فمه، ودويّ مخيف في قلبي. حاولت أن أتمنّع بعذرٍ قد يبدو مقبولًا ومقنعًا:

– يمكن معك حق. بس إنت رجال مجوّز، والقصة كلّها عبعضا مش زابطة. ما تنسى إنّو عندك تلات اولاد، كيف بدّك ايّاني وافق بهالبساطة وآخدك منن؟

– ندى! اسمعيني جيّدًا! صحيح أنا رجلٌ متزوّج، ولكنّي لست الرجل الوحيد الذي يتزوّج مرّتين. وسأكون كاذبًا إن قلت لك إنّي نادمٌ الآن على زواجي الأول. لا، ليس بعد أن منحني الله أبنائي الثلاثة. ولا أفكّر بالطلاق من زوجتي. أنا أعترف بأنّي لم أحبّ حياة يومًا في حياتي، ولكنّها ستبقى أمّ أولادي ولن أطلّقها ما دامت تريد البقاء على ذمّتي. أمّا أنت، فأنت حبيبتي، ربّما التقينا متأخرين بعمر ولكنّنا التقينا، وأشعر بأنّي لن أكون يومًا على قيد الفرح إن لم تكوني لي.

– ماجد! أبهذه البساطة تكون الحلول بنظرك؟ بأنانيّة ترضي رغباتك أنت وحدك دون أن تكترث بمشاعر الآخرين؟

– يا ندى، إنّها حياتي أنا أيضًا وليست حياة الآخرين وحدهم. أنا أعترف بأنّي قد أخطأتُ بحقّ نفسي ذات يوم، وبحقّ حياة أيضًا، عندما رضختُ لرغبة والدي وتزوّجت ابنة أخيه الوحيدة دون شعوري بأيّ انجذابٍ نحوها أو بأيّ انسجام في ما بيننا. ولكنّني يومها لم أفكّر بعواقب ما كنت مقدمًا عليه، بل كنت أحاول فقط أن أكسب ودّ والدي وأن أرضيه، ولم أتوقّع يومًا أنّي سأدفع سعادتي كلّها ثمنًا لذلك الخيار الخاطئ. فهل من سبيلٍ للتكفير عن ذنبي ذاك؟ ألا يحقّ لي أن أعيش سعيدًا ما بقي من عمري؟

– وزوجتك؟ من سيعوّضها الآن عن رهنك حياتها ومستقبلها بخيارٍ فاشلٍ ألزمتها به قبل سبع سنوات؟

– ولكنّه كان خيارها هي أيضًا، فأنا لم أخدع حياة يومًا ولم أوهمها بحبّي لها. لقد كنّا معًا ضحيّة الأعراف الاجتماعيّة البالية، وهي تعلم مثلي تمامًا أنّنا لا نصلح أن نكون أكثر من شريكين في سكنٍ واحد، نتعاطى برسميّة بارعة ونتفنّن في التمثيل أمام الجميع، ولكنّنا فعليًّا نفتقد كلّ مشاعر الحبّ والودّ التي تجعل كلًّا منّا ينتمي للآخر. كلّ ما يربط بيننا حتى الآن بعض المجاملات والجلسات العائليّة والمناسبات الخاصّة بأولادنا... فقط، ولا شيء آخر.

– وهل تظنّ أنّك ستجد فيّ أنا كلّ ما افتقدته من مشاعر، وكلّ ما تبحث عنه؟

– نعم، ربّما... لست أدري... لست أدري، لعلّي عاجزٌ عن تفسير اشتياقي إليك وتعلّقي بك بغير ذلك. هل تعلمين أنّي أمضيت يومي كلّه في الجبل لأحاول فقط أن أنأى بنفسي، وأن أفكّر مليًّا وبموضوعيّة بعيدًا عن عينيك؟ لكنّك لم تطلقي سراحي ولا لحظة. طوال الوقت وأنا أراك أمامي، تطوّقين أفكاري، وإذا بي أفكّر بك دون انقطاع وأتحدّث عنك بلا ملل. هل تعلمين أنّي رجعت إلى الفندق قبل قليل، ولكنّي لم أستطع البقاء هناك دون أن أراك، فأتيتك لاهثًا؟ بربّك، هل من تفسير آخر لديك لكلّ ذلك؟

– ماجد، أرجوك، لا تورّطني في مشاعر لن تزيدني سوى فقد وافتقاد.

– لماذا؟ وهل الحبّ في نظرك فقد وافتقاد؟ ما هذا التشاؤم يا ندى؟

– أنا لست متشائمة، صدّقني، لكنّي لا أرى أُفقًا لهذا الحبّ، وكما ستجرفنا أمواج العشق معًا في مدّها الحالم، سيعود الواقع

ليلقي بنا على جادة الفراق ويتركنا هناك، تنهش بنا رياح الفقد، وأنا لا أريد المزيد منه... كفى قلبي فقدًا ووحدةً.

– ندى! حبيبتي! أرجوج تسمعيني وما تقاطعيني... أنا أبي أكمل حياتي معاج وهالشي ما أظن بيأثر على علاقتي بعيالي وزوجتي. رح أقول للكلّ عن زواجنا، وحياة حرّة بقرارها ما حد بيضغط عليها. أرجوج لا تستعيلين الرد. أعطيني فرصة أثبتلج إني أحبج.

– أوكي ماجد، بوعدك فكّر بالموضوع... بس خلّيني إرجع هلّق عالبيت لإنّو الوقت تأخّر كتير ومنحكي بكرا، أكيد.

وقبل أن أغادر السيّارة، مرّر أصابعه الحانية على وجنتي وهو ينظر في عينيّ بكلّ ما أوتي من حبّ، ويشكرني. وعندما هممتُ بإغلاق الباب ناداني فجأةً ثمّ ابتسم وهو يمدّني بشريط مسجّل ويقول لي:

– ندى! هذه أغنيتي المفضّلة، أستمعُ إليها باستمرار، خاصّةً عندما يجرفني الحنين إليك. أرجو أن تستمعي إليها وأن تنال إعجابك، تصبحين على خير...

شكرته كثيرًا على لطفه وغادرته وكلّ ذرّةٍ فيّ تطفح حبًّا وحزنًا وحيرةً. لم أصدّق أنّ القدر قد انصاع لرغبتي أخيرًا فأتاني بماجد على طبقٍ فاخرٍ من الحبّ. لكنّه قدرٌ ماكر، لم يرضَ لي فرحةً كاملة، بل أتاني به بقلبٍ منقوص وحياةٍ مجتزأة. فمهما كانت نتيجة علاقتنا فسيبقى ماجد زوجًا لامرأةٍ غيري، وأبًا لثلاثة أبناءٍ لن يكونوا يومًا أبنائي.

دخلت غرفتي وأدرت المسجّل، ورحت أستمع وقلبي يحلّق في عالمٍ آخر. كانت الأغنية خليجيّة وغير معروفة بالنسبة إليّ لقلّة

اهتمامي بالطرب الخليجي، إلّا أنّ كلماتها شدّتني بسرعة، فرحت أنصت بشغف كي لا يفوتني حرف واحد منها:

ليلة... لو باقي ليلة...
بعمري... أبيه الليلة...
واسهر بليل عيونك...
وهي ليلة عمر...
يا الله يا الله وشكثر انتي جميلة...
يا الله يا الله وشكثر أنا أحبّ...
أحلم أحلم بك دايم...
جنبي وانا صاحي ونايم...
يللي أيّامي بدونك...
ما هي من العمر...
صوتك همسك بيتي وسفري...
قمرك شمسك ليلي وفجري...
وانتي يا عيوني إنتي...
قلبي أنا وين ما كنتي...
يللي سواد عيونك أفديه العمر...

كان اليوم التالي موعد عودته إلى الكويت، ويوم إجازتي. أرسل إليّ باكرًا رسالةً هاتفيّة قصيرة:

«صباحك ياسمين، لقد جفاني النوم مذ غادرتني أمس، فهل لي إلى قهوةٍ صباحيّة في حضرة عينيك؟».

كلّمته على الفور للاتفاق على موعد، فقد كنت أنا أيضًا بانتظار هاتفه بعدما أمضيت الليل وأنا أساهر ابتسامته وأنتظر صوته.

يا إله الحبّ أنقذني من هذا الحبّ، فلم يبقِ لقلبي باقية...

التقينا يومها كعاشقين سيغدر بهما الفراق بعد قليل، ويترك في قلبيهما جمر الحبّ مشتعلًا. أمضينا الفترة الصباحيّة معًا، في أحضان ملتقى النهرين. تناولنا الفطور معًا، تحدّثنا، تهامسنا، تراقصنا على نغمات الحبّ وتواعدنا صمتًا بعمرٍ مشترك، ثمّ رحل، بعدما غنّى لي «ليلة»، وبعدما وعدته بأن أفكّر بارتباطنا نهائيًّا، وكأنّ لقاءنا في ذلك اليوم لم يكن تصريحًا واضحًا وجليًّا بموافقتي الأكيدة على طلبه.

ذهبت معه يومها لأوّل مرّة إلى المطار، لأودّعه. وصلنا متأخّرين بعض الشيء. حاول أن يتفلّت من قبضة الوقت، ولكنّه لم يفلح. وقبل دخوله المنطقة المخصّصة للمغادرين، أمسك بيديّ وطبع عليهما قبلةً وداعيّة، ثمّ همس في أذني بصوتٍ لن أنسى عذوبته يومًا:

– ندى، أنت لي، ولن تبارحي قلبي، ستمكثين هنا بين ضلوعي إلى الأبد.

عانقني برفق واحتضن يديّ الباردتين بين يديه، وكأنّه يريدني أن أستبقيه لعمرٍ آخر، لحبٍّ آخر، لأسبوعٍ آخر.

نظر في عينيّ الذابلتين طويلًا، طويلًا، كمن يريدني أن أحفظ ملامحه عن ظهر قلب، كمن يذيب في نار عينيّ شوق عينيه، وكأنّه يقول لي «سأعود، وستكونين لي حتمًا ذات يوم».

وأنا، كريشةٍ ترتجف في أحضانه، رسمتُ على شفتيّ ظلّ ابتسامةٍ متعبة لأقول له، دون أن أقول «كم أرجو ذلك حقًّا».

ابتعد عنّي باتّجاه قاعة المسافرين وعيناه مسمّرتان عليّ، تنظران من خلف زجاج المطار، فلا تريان غيري. يا إلهي! كيف،

بلحظاتٍ قليلة، نسج لي عالمًا من صنع يديه. عالمٌ لا شيء فيه سوى دفء وجوده... رحت أنظر إلى الحاضرين فلا أرى إلّا عينيه، تجتاحان كلّ الوجوه وتبتسمان لي حيثما التفتّ.

يا إلهي! كم مستبدٌّ هو بحضوره، وبحنانه. كم آسرٌ هو بغموضه وسحر نظراته العاشقة.

أتراه يحبّني حقًّا، أم هو يشتهيني فقط، كما يشتهي أيّ امرأة، أم تراه يحتاج إلى حبّي ذاك ليرضي بعض غرور الرجولة؟

كم صعبةٌ هي أسئلة الحبّ!

تعثّرتُ بأسئلتي، تبعثرت دموعي، وباغتني شوقٌ مخيف.

كلّ هذا الحنين... من أين تراه يستفيق ويضرم النار فيّ بغتةً؟ كان شعورًا غير مسبوق بالنسبة إليّ وأنا أراه يبتعد حاملًا قلبي بين يديه. ابتسم لي من بعيد وأرسل إليّ قبلةً أخيرةً عبر أثير الشوق قبل أن يختفي وجهه بين الحشود.

كم كان مؤلمًا أن أشعر بأنّ فرحتي وحزني أصبحا الشعورين الوحيدين المتلازمين في قلبي، لا ثالث لهما، وأنّ كليهما بات مرهونًا بحزام طائرة لا يلبث أن يُطلق منه سراح أحدهما حتى يسجن به الآخر، وأنّي لم أكن على قيد الحياة ولا على بال الحبّ أصلًا قبل معرفتي بماجد.

ما إن غادرت المطار يومها حتى غادرتني حيرتي فجأة. وقبل أن أصل إلى المنزل كنت قد قرّرت الارتباط بماجد بلا تردّد، مهما كلّفني الأمر.

في الأيّام القليلة التي تلت رحيل ماجد، كانت بانتظاري مهمّة صعبة وهي أن أقنع الجميع بزواجنا وخاصّة خالتي ليلى وأخي

حسّان، فقد كانت فكرة الارتباط بشخص غير لبناني غير واردةٍ في بالهم أصلًا، فكيف بمن هو متزوّج وأب لأبناءٍ ثلاثة؟

بدأت التمهيد للفكرة مع خالتي ليلى، فقد كنت أعلم أنّي بمجرّد الحصول على موافقتها سأكون قد قطعت شوطًا شاسعًا في طريق إقناع أخي حسّان... وهكذا كان. فبعد أخذٍ وردٍّ طال أمدهما، اتفقت معها على أن لا أمنح ماجد أيّ موافقة فعليّة على ارتباطنا إلّا بعد أن تتعرّف شخصيًّا إليه، وتتأكّد بنفسها من أنّه يستحقّني فعلًا، وأنّني سأكون بأمان معه.

أما حسّان، فقد تولّت خالتي فكرة إقناعه عبر الهاتف كي تخفّف من حرجي أمامه. وعلى الرغم من رفضه الذي دام فترة، استطاعت خالتي بأسلوبها الخاص أن تستعطف قلبه وتضرب على وتر محبّتها له وارتباطه بها، لأنّها تعلم تمامًا أنّه لم يكن ليقاوم طلبها وقد أصبحت البديلة الوحيدة من والدتنا.

وهكذا كان، فقد عاد حسّان إلى لبنان بعد فترةٍ وجيزة لإمضاء إجازته الصيفيّة، والتقى بماجد في زيارةٍ تعارفيّة قصيرة.

لم أخَف يومها كعادتي، ولم أرتبك، بل كنت واثقةً من أنّهم إن تجاوزوا مشكلة زواجه الأول، فإنّهم لن يجدوا ما يعترضون عليه، خصوصًا أنّ ماجد كان يتمتّع بشخصيّة متوازنة، مقنعة، وناضجة إلى حدٍّ بعيد.

4

هل صحيح أنّ لبشائر الحبّ في حواسّ العاشقين عبيرًا يستبق الزمان والمكان، ويملأها بالفرح؟ ولكن، أليس غالبًا ما يكون لهذا الفرح أجلٌ مسمّى لا مفرّ منه؟ فمهما طال العمر بفرحة الحبّ، فستُحتضَر يومًا لا محالة.

ولقد كنت ممّن قُدّر لهم فرحٌ عشقيّ فتيّ لا يشيخ ولا يعمّر طويلًا، بل يرحل دومًا غضًّا، وهو في ريعان الشباب.

لم يكن موعد مجيء ماجد إلى بيروت هذه المرّة مفاجئًا ككلّ مرّة، بل كان قد اتُّفق عليه مسبقًا مع العائلة، مراعاةً لظروف سفر حسّان. فكان يوم الخامس عشر من أغسطس 2003 موعدًا ضربه القدر لنا مع الفرح القادم، ليوهمنا بأنْ لا بدّ للحبّ دومًا من نهاياتٍ سعيدة.

أتاني ماجد من الكويت حاملًا قلبه في راحتيه، وقدّمه لي عربونَ حبٍّ أبديّ لن يمسّه مكروه. فقلب رجلٍ عاشق، وكنيته، هما أروع ما قد يهديه حبيبٌ لحبيبته.

من الآن فصاعدًا، سأكون محصّنةً ضدّ الأحزان والوحدة، بعدما اقترن اسمي باسمه. سأكون امرأةً بقلبٍ جديد ولقبٍ إضافي

ومستقبلٍ نضر. أخيرًا سأكون له...

أسبوع كامل، ونحن ننهل معًا من بحر السعادة التي لا مثيل لطعمها. أسبوعٌ غمسنا ساعاته بالحبّ المعتّق المخمور، قضيناه معًا على كوكب العشق، وسط ثرثرة النجوم. أسبوع قلّما يجود الزمان بمثله لمن لهم حصّتي من الفرح العاثر.

وكلمح البصر... انقضت تلك الأيّام التي كان مخططًا لماجد أن يقضيها معي في بيروت كفترة خطوبةٍ أوّليّة، قبل أن يعود إلى الكويت ويباشر بإنجاز معاملات الزواج وضمّي إلى خانة العائلة.

سافر ماجد إذًا، وتركني عند أطلاله، أنتظر. لم يكن ينوي التأخّر في العودة، بل وعدني أنّها أيّامٌ قليلة وسيعود لإقامة حفل الزفاف ومن ثمّ سنسافر معًا إلى عشّنا الزوجي الدافئ.

كنت أحادثه كلّ يوم بلهفة طفلٍ غابت عنه والدته وتركته لبرد الوحدة القاتلة. وكان هو بانتظاري كلّ صباح ليسرد عليّ تفاصيل أيّامه المملّة بعيدًا عنّي. لم يشعرني لمرّةٍ واحدة بأنّي كنت على موعدٍ قريب مع العاصفة، وأنّ رياح النهاية ستهبّ عليّ من حيث لا أدري، وستقتلع جذور حكايتي معه.

وذات صباح، وبينما كنت أحدّث أحد الزبائن في الفندق، فُتح الباب أمامي وأطلّ منه رجلٌ ستينيّ بزيّ خليجيّ، كان يبدو على عجلةٍ من أمره.

اقترب من الكونتوار فابتسمت له على الفور بترحيبٍ كبير، متجاهلةً ملامحه القاسية. فقد غدا قلبي مولعًا بكلّ ما هو خليجيّ الصبغة، وبكلّ من يذكّرني بماجد، ويحمل لي منه طيفًا أو خيالًا.

طلب منّي ذلك الرجل التحدّث إلى موظفةٍ تُدعى ندى لأمرٍ هامّ، ولم يُفاجأ بأن أكون أنا ضالّته المنشودة، بل سرعان ما

أخبرني أنّه والد ماجد وأنّه يريد محادثتي لبضع دقائق على انفراد.

لم أعد أذكر الآن حجم الارتباك الذي شوّش أفكاري حينئذٍ، ولا كثافة الصور والأفكار التي تدافعت في رأسي، ووجدتني أقول له بنبرةٍ رسميّة يخالطها الكثير من الأدب:

– أهلًا وسهلًا، تفضّل، بإمكانك الجلوس حيثما تشاء. دقائق وأكون تحت أمرك...

استدار متوجّهًا نحو ركنٍ بعيدٍ في ردهة الاستقبال وجلس مقطّبًا يديه فوق الطاولة. لم تترك لي عيناه فرصة الخلود إلى نفسي لأسألها عن سرّ مجيئه أو لأستشيرها في طريقة استقباله بعدما حاصرني بنظراته الثاقبة. وما هي إلّا دقائق حتى توجّهت إليه وملامحي تقطر خجلًا وارتباكًا.

جلست إلى الطاولة بعدما أسدلتُ على شفتيّ خيال ابتسامة، ثمّ رحّبت به وسألته إن كان يرغب في أن أقدّم له كوبًا من القهوة. لكنه لم يُجبني، وباشر بصلب الموضوع:

– أخبرني ماجد بأنّه قد تقدّم للزواج بك، وأنّكما قد عقدتما قرانكما منذ أيّام. في الحقيقة لم أُفاجأ أبدًا، فلطالما حذّرته في الماضي من الوقوع في شرك إحداكنّ، وها هي النتيجة.

كنت أستمع إليه دون أن أنبس ببنت شفة. تركته يفرغ ما في جعبته من طلقات ناريّة بحجم الإهانات التي جاد بها لسانه، والتي لم يخطر ببالي يومًا أنّها قد تطالني من أحدهم، خصوصًا من والد زوجي المستقبليّ، فتابع كلامه بلهجةٍ قاسية، لا تعرف للّطف طريقًا:

– أظنّك تعرفين جيّدًا أنّه متزوّجٌ بابنة عمّه ولديهما أبناءٌ ثلاثة. هل فكّرتِ بهم؟ هل خطر ببالك ما قد يحدث لأولئك الأطفال إن فقدوا

والدهم وهو لا يزال حيًّا يُرزق؟ هل فكّرت بشعور زوجته المسكينة التي تجلس كلّ مساءٍ تنتظر عودته، وهي لا تدري أنّه يستثمر وقته في الحبّ لا في العمل كما يحاول أن يقنعها، وأنّه يأوي كلّ مساءٍ إلى قلب امرأةٍ أخرى لا يعنيها ما سيؤول إليه مصير عائلةٍ بأكملها، بل كلّ ما يعنيها هو ارتباط أنانيّ لا أظنّه قائمًا سوى على المصلحة المادّية؟ وفي هذا الخصوص تأكّدي تمامًا من أنّك لن تفلحي أبدًا.

كانت عيناي تجحظان شيئًا فشيئًا وهما تقاومان طوفان الدموع الزاحف إليهما بزخم. أنا؟ يقصدني أنا؟ أتراه كابوسًا جديدًا، أم لعبة بشعة قرّر القدر أن يشغلني بها؟

حاولت أن أستجمع بعض الكلمات في رأسي لأدافع بها عن كرامتي المستباحة، لكنّه لم يترك مجالًا لحرفٍ واحدٍ أُشهره في وجهه، بل أكملَ بكلّ ما أوتي من لؤمٍ وخسّة:

– اسمعيني جيّدًا أيّتها العروس الذكيّة، تأكّدي تمامًا من أنّي ما دمتُ على قيد الحياة فلن أسمح لأحدٍ على الإطلاق بالمساس بسعادة أبنائي. وكما أن ماجد ابني، فإن حياة أيضًا ابنة أخي وفي عداد بناتي ولن أرضى لها بذرّة حزنٍ واحدة. تأكّدي من أنّي لن أقف مكتوف اليدين وأنا أراكِ تقتحمين أحلامها وتهدّين ببرودٍ كلّ ما شيّدته لأسرتها طيلة السنوات الماضية. لن يعود ماجد إليك بعد اليوم. صدّقيني. ولن تنعمي بحبّه وثروته كما تخططين. لقد اتّفقت معه على أن ينهي فورًا هذا المشروع البائس الفاشل، وأن يرسل إليك ورقة طلاقك، وسيفعل. وبما أنّي سأعود إلى الكويت بعد غد، فأنا أنتظر أن تأتيني غدًا بكلّ ما أغدق عليك به من ذهبٍ وماس كعربون حبٍّ وارتباط، فزوجته وأولاده أحقّ بها منك. لن أطيل عليك

لأنّي أرى أنّ لديك عملًا ينتظرك، ولا بدّ لك من أن تجدّي وتكدّي لكسب رزقك، فلن يكون هناك ماجد – الكنز في حياتك بعد اليوم.

ومضى.

عندما رفعتُ رأسي عن الطاولة، لم أرَ أمامي سوى كتل من الضباب القاتم تتجمّع في عينيّ وتحجب عنّي الرؤية. كنت أعجز من أن أصرخ أو أن أبكي حينها، وكأنّي مشلولةٌ لا روح فيها، وكأنّ الدموع التي كانت تهطل على خديّ لا حدّ لها، ولا نهاية لها، لم يكن فيها سوى لسعات الجمر الذي كان يكويني بناره، ويترك في كلّ ذرّةٍ من جسدي ندبةً وعلامةً فارقة. وعلى الرغم من أنّ جميع الزملاء قد تجمّعوا من حولي، إحداهنّ تربّت كتفي، وآخر يمدّني بنظرات المعونة خوفًا عليّ من الانهيار، فقد كنت أهيم في عالمٍ آخر، لا شيء فيه سوى صوت ماجد ووعوده الكاذبة.

لم يكن يعنيني حينئذٍ أن يكونوا سمعوا حديث والد ماجد معي، أو شاهدوا كرامتي وهي تُسحق تحت سطوة كلماته. كلّ ما أهمّني حينها هو أن أعلم إن كان ما يحلّ بي حقيقةً مؤكّدة، أم قصّة من نسج خيالي، أم دعابةً من دعابات الكاميرا الخفيّة. تلك كانت الخيارات المحتملة، وكنت تائهة بينها.

هل هذه هي النهاية فعلًا، ووالد ماجد هو من يبلغني بها نيابةً عن ولده؟ أم هو نوعٌ من أنواع التحدّي والتهديد وتسجيل المواقف الاستباقيّة على زواجنا، فقط لأنّ ماجد لم ينصع لأمر والده؟

لم يكن أمامي حينها سوى الهاتف. استجمعت شيئًا من قواي وضغطت على رقم ماجد مرّاتٍ ومرّات لأفهم منه ما الذي يحدث، إلّا أنّه لم يُجبني، وتركني وحدي أمام خيارات الإجابة الثلاثة تلك، التي لم أحتج يومها إلى حذف واحد منها، ولا للاستعانة بصديق

ليساعدني على إيجاد الصحيح منها. لقد كانت الإجابة أوضح من رابعة الشمس، فخطيبي لم يُجب، ولن يجيب... لأنّه لا يجرؤ على مواجهتي بالحقيقة، ولا يملك الإجابة عن أسئلتي، وكلّ ما حدث لي مع والده كان حقيقةً مؤكّدة لا لبس فيها.

أدركتُ ليلتها أنّي كنت أفوق الغباء غباءً، وأفوق التعاسة تعسًا، بل وأفوق النحس نحسًا.

في اليوم التالي، تسلّمتُ ورقة طلاقي غيابيًّا، كأيّ رسالةٍ مضمونة نرسلها عبر بريد DHL السريع لأهميّة مضمونها. لم أقم بأي ردّ فعل، لم أنتحب، لم أصرخ ولم أسقط إعياءً، فقد كنت على يقينٍ بأنّي سأتسلّمها عاجلًا أو آجلًا، وإن كنت قد أخطأت في إصابة التوقيت الصحيح. لقد جاءتني رسالته قبل الموعد المتوقّع، تستعجل حزني.

كلّ ما أذكره هو أنّي تقيّأتُ كثيرًا يومها، بعدما خذلتني دموعي وعجزت عن التلبية.

أيّامٌ عصيبةٌ قاتمة اكتسحت حياتي بلا استئذان وحوّلتني امرأةً لا حياة فيها، جسدًا تصفر فيه رياح الحقد والألم.

وبدل أن يكون أيلول موسم الخيرات والمطر، وبدل أن يبتلّ طرفه بالغيث السماوي، بات بالنسبة إليّ شهر الموت والحداد.

ففي العاشر من أيلول 2003، أعلنتُ نفسي أرملة الحبّ السوداء، وأعلنني الحبّ بدوره فقيدته المأسوف على شبابها.

ووسط ركام الحزن المحيط بي من كلّ جانب، انتزعتُ قلبي المطعون، وأقفلتُ عليه علبةً ماسيّةً ثمينة، ثمّ أرسلته لمن كان يُدعى خطيبي، متوسّطًا مجموعة الحليّ التي كان قد أهداها إليّ ذات خطوبة، لعلّه يتمكّن يومًا من أن يكشف عن عينيه الحجاب،

ويميّز جيّدًا بين قيمة قلبي الذي لم أكن أملك سواه ومع ذلك منحته له طوعًا، وبين المجوهرات التي لا تساوي شيئًا في حسابات ثروته، ومع ذلك ضنّ بها عليّ يوم استعادها منّي، كما ضنّ عليّ بقلبه يوم انتزعه من حياتي عنوةً، وبصمت، وللأبد.

هكذا... عادت حياتي إلى سابق عهدها بعدما أُضيف إلى شعوري الآنف بالفقد والحزن والوحدة، شعورٌ مستحدثٌ بالظلم والإهانة ممّن كان أحبّ الناس إليّ.

ليالٍ بطولها وعرضها وأنا أسامر الحزن والخيبة، ثمّ لا أغفو إلا على أنين قلبي وحرارة دموعي. وعلى الرغم من أنّ خالتي ليلى قد أحاطتني بكامل رعايتها طيلة فترة حدادي العاطفيّ، ومع أنّ حسّان قد أعطاني أيضًا جرعةً مفرطة من حنانه ودعمه، لم أتمكّن من تخطّي ما حدث.

لطالما أنّبتُ قلبي، ولطالما اختليتُ بنفسي وحلّلتُ معها دوافع ماجد والأسباب التي قادته ليوافق على صفقة أبيه ويلتزم صمته الاستفزازي. لطالما سألت نفسي أسئلةً لا جواب لها. لماذا تراه فعل ذلك بي؟ وكيف طاوعه قلبه على أن يتلاعب بفرحتي الغضّة؟ لمَ كان عليه أن يغتال أوّل الأفراح في قلبي؟

وإن كان كلّ ذلك خارجًا عن إرادته، فقد كان الأجدى به ألّا يعدني بكلّ ما وعدني به من حبٍّ وأمانٍ واستقرار، ما دام يعلم جيّدًا أنّه لن يتمكّن من التصدّي لجبروت والده، وأنّه لن يستطيع الذود عن حبّنا إذا ما هاجمته قوافل المصالح العائليّة المستبدّة.

فهل كنت أستحقّ منه جرحًا بهذا الحجم؟ وهل كان مسلّيًا بالنسبة إليه مشهد كرامتي وهي تُراق أمام سطوة والده وبذاءته، أم هو لم يستطع أن يقاوم رغبته في أن يكون الرجل المحبوب

الذي تُعجب به النساء، وتتنازل لأجله عن كلّ قناعاتها في الزواج، فلعب معي لعبته الخبيثة الشنعاء، واضطرّني لأن أدفع قلبي ومشاعري وكبريائي ضريبةً مجحفة ثمنًا لحبّه إيّاي؟

غريبٌ حقًّا... كيف يتحوّل الحبّ الكبير فجأة إلى حقدٍ أسود؟ وكيف تستحيل نيرانه العذبة جحيمًا يبتلعنا حتّى آخرنا؟ كم عذّبتني فكرة الجرح النازف في قلبي، الذي لن يُشفى إلّا بجرحٍ مماثل في قلب ماجد!

كم مرّة فكّرت بالسفر إليه، فقط لأنظر في عينيه، وأقول له ببساطة إنّني لن أسامحه يومًا على فعلته، وإنّني لم أندم على شيءٍ في حياتي كندمي على الحبّ الذي وهبته له والوقت الذي أهدرته معه...

كنت حاقدةً عليه بقدر حبّي له وبقدر إيذائه لي أو ربّما أكثر.

كنت أشعر أحيانًا بأنّ نيراني لن تُخمد إلّا إذا رددتُ له الصاع صاعين والجرح جرحين، مع أنّي كنت على يقين بأنّي لن أستطيع، وإن استطعت، فسأفكّر ألف مرّةٍ قبل أن أقدم على أيّ فعلٍ سيؤذيني أنا قبل أن يمسّه هو بأيّ أذى... لذلك لم يطاوعني عقلي على فكرة لقائه ولم أتمكّن يومًا من الردّ عليه بالمثل، فالتزمتُ الصمت المميت.

لم يمض على مأتم حبّي ذاك سوى أيّام حتى أرسل إليّ أخي حسّان تأشيرةً إلى الإمارات في محاولةٍ منه للتخفيف عنّي ومساعدتي في إيجاد عملٍ قد ينسيني حزني ووحدتي وقد يفتح أمامي بابًا لحياةٍ جديدة في عالمٍ مختلف إلى حدٍّ ما.

لم أناقش اقتراحه ولم أتردّد في السفر إليه خصوصًا بعدما فقدت كلّ أسباب ارتباطي وتمسّكي ببيروت، بل كنت بحاجةٍ يومها ليدٍ

تمسك بوجعي وتبعدني عن تلك المدينة وعن طريق مطارها. كنت بحاجة لأيّ شيءٍ يمحو من أمام ناظري مسلسل الذكريات التي لا تتوقّف أبدًا، ففي كلّ شارع ذكرى، وعند كلّ مقهى همسة، وفوق كلّ رصيفٍ ابتسامة، فمن أين سيأتي النسيان؟

لذلك رحّبتُ فعلًا بفكرة السفر إلى دبي ووجدتني في الخامس من أكتوبر 2003 على متن طائرة الهروب، أبحث لي عن موعدٍ مع حياةٍ أخرى... لا أعرف عنها الكثير.

5

كانت دبي مدينة الأضواء الحالمة. صبيّة مراهقة تهوى السهر، تغري بالحبّ وتنبض بكلّ ألوان الحياة.

خلال الأشهر الثلاثة الأولى لازمني شعورٌ بالروتين القاتل. كان الإحساس بالفراغ يستبدّ بي ويستعرض أمامي كلّ يوم مسلسلي الدراميّ مع ماجد، فيستدرّ حزني أحيانًا، ويوقظ شوقي له أحيانًا أخرى.

أعترف بأنّي كنت أعيش حينئذٍ انفصامًا في القلب وازدواجيّةً في الشعور. فقد كنت أترنّح بين شوقي لماجد وكرهي له، وبين انتظاري له وحقدي عليه، وأعترف أيضًا بأنّي كنت أضعف من أن أختار نسيانه، أو أن أعمد إلى تشويه صورته في عينيّ.

كم مرّةٍ ساورتني نفسي الأمّارة بالحبّ بأن أطلب رقمه، ثمّ أقفل بمجرّد أن أسمع صوته. وكم مرّةٍ حرّضني وجعي على أن أكلّمه صراحةً ليشرح لي حقيقة ما جرى. فمن أبسط حقوق الضحيّة أن تعلم بأيّ ذنبٍ ظُلمت وقُتلت. إلّا أنّي لم أكن شجاعةً بما يكفي لأستمع إلى عذرٍ قد يكون في نظري أقبح من ذنب، فأندم على السؤال.

انقضت الشهور الثلاثة الأولى وأنا بين جدران المنزل، أنتظر عودة حسّان من عمله ليبدأ عمله التطوّعي المسائي بالخروج معي كلّ يومٍ تقريبًا إمّا للتنزّه، وإمّا للتسوّق، ظنًّا منه أنّه لا بدّ لذلك الطقس النسائي من أن يحسّن مزاجي ويعيد إليّ حيويتي، وهو لا يعلم أنّي لم أكن أهوى التسوّق، خلافًا لمعظم النساء.

كنت غالبًا ما أسعد باحتساء القهوة في تلك المراكز التجاريّة التي تغصّ بالناس والتي لا تهدأ فيها العجلة البشريّة أبدًا. أراقب المشهد العامّ بصمت. نساءٌ ورجال من كافة الأعمار، ومن مختلف الألوان والأجناس، يتقاطرون على المقاهي والمحالّ، ويمارسون حياتهم بتلقائيّة عجيبة، فتقفز بيروت إلى ذهني، ويشتعل قلبي شوقًا إليها.

يا إلهي! كم اشتقت إلى بيروت في تلك الأيّام! وكم تمنّيت أن تضمّني إلى صدرها من جديد. لعلّي لم أفكّر يومًا بمدى انتمائي لبيروت وبما كانت تعنيه لي تلك المدينة التي عشتُ فيها وعاشت فيّ سنين طويلة. ولكنّي سرعان ما اكتشفت أنّها تنبض في شراييني، وأنّها قد دمغتني بعشقٍ لا مفرّ منه أبدًا.

إنّها تسكنني بكلّ أمزجتها، وبكلّ جنونها. تلك المدينة التي تهوى التناقضات، وتلهث خلف الحكايات التي لا آخر لها. تلك المدينة المتعجرفة حدّ الأذى، والوادعة حدّ الكمال، لها قدرةٌ عجيبة على أن تمارس عليك كلّ طقوس أنانيّتها وهوسها وطفولتها، دون أن تمسَّك ذرّة سخطٍ عليها، بل سرعان ما تقنعك بذكائها الأنثويّ بأنّك وإن كنت لا تستطيع ربّما أن تتعايش معها فإنّك لن تصبر على هجرها لوقتٍ طويل، ولن تحتمل كرهها لك أو حقدها عليك.

كنت كثيرًا ما أستحضر في ذهني شغف ماجد ببيروت والتصاقه بها، فأدرك متأخّرة كم كان على حقّ، وكم تستحقّ هذه المدينة عن جدارة كلّ أوسمة ذلك العشق المتّقد.

تعاقب الوقت على أيّامي ببرودٍ عجيب. كنت أنتظر فرصة عمل في دبي، قد تمنحني الرغبة في البقاء هناك، وتبعد عنّي أشباح الضجر القاتل.

انتظرتُ أيّامًا دون أن أنتظر فعلًا، ودون أن أشغل نفسي بالتفكير في ما سيأتي، ولذلك سرعان ما حصلت على وظيفة، فازداد يقيني بأنّ هذه الحياة تفوق الأنثى مكرًا وكيدًا: فإن أقبلتَ عليها أدبرتْ وخاصمتْ وهجرتْ هجرانًا طويلًا، وإن أوليتَها ظهرك، وأبديتَ لها صدودًا، حارت في استمالتك، وأغدقت عليك بوصلها حتى ترضيك.

وكانت دبي كذلك أنثى من الطراز الرفيع، أنثى لا تخضع حظوظك بكسب ودّها لشروطٍ معيّنة وثابتة، بل لمزاجيّة اختياراتها هي. فعلى الرغم من أنّي لم أكن أملك شهادات خبرةٍ كثيرة تمكّنني من اختراق صفوف المتقدّمين للوظائف، كان يكفي أن أجيد ثلاث لغات، وأن أتمتّع بشخصيّةٍ واعدة لكي أحظى بوظيفة سكرتيرة في إحدى شركات العقارات المرموقة، وبراتبٍ سخيّ.

هكذا، بدأتُ خطواتي الأولى بثبات في عالمٍ جديد لم يكن في حسباني، عالمٍ بدا لي باردًا، وفارغًا ولا مكان فيه للحبّ ولا للثقة. فقد سلبني ذلك الخليجيّ بانسحابه من حياتي كلّ أرصدة الأمان التي امتلأ بها مصرف قلبي ذات يوم، ولم يُشفَ من صدمة فقدانها بعد.

كان للحياة في دبي طابعٌ فريد بامتياز، يُشعرك بالغربة وبالألفة في آنٍ واحد. مدينةٌ عجيبة وغامضة. كثيرة الروتين ولكنّها أيضًا باذخة الفرح. قد تختلط مشاعرك نحوها، وقد تتباين آراؤك فيها، ولكنك ستقع في حبّها في النهاية، شئت ذلك أو أبيت.

قليلة هي المدن التي تفتح شهيّتنا على الحبّ وتغرينا بأكثر من عمر، وأكثر من حكاية. وقليلة هي المدن التي تنتشلنا من عمق جراحنا، وتحرّضنا على أن نتمرّد على ماضينا، وأن نستقلّ قطار أوهامنا ورغباتنا نحو المجهول، بانتظار محطة حبٍّ جديدة قد نتوقّف فيها ذات يومٍ خطأً، وقد لا نتوقّف أبدًا. وكانت دبي، بكلّ ما فيها، تلك المدينة التي تصلح لأن أعيش فيها قصّة حبّ جديدة.

كنت قد بدأت أنصاع لمقرّرات الواقع الذي فُرض عليّ هناك، ولساعات العمل الطويلة التي كانت تسلّيني وترهقني في الوقت ذاته، إذ ترمي بي كلّ مساءٍ في الفراش، جسدًا متعبًا لا ينشد سوى الراحة.

كثيرةٌ هي الأشياء التي افتقدتها وافتقدتني منذ غادرت بيروت، وكثيرةٌ هي الوجوه التي اشتقتها واشتاقتني آنذاك، ومع أنّي صمدت أمام حزني ودماري الداخلي وحاولت ترميم ما بقي من عواطفي وعزيمتي، وقفت على باب بيروت عند أوّل نداءٍ وصلني منها. ألقيت بحزني وغربتي عند عتبات مطارها وأنا أنظر حولي وكأنّي لا أصدّق أنّي عدت إلى أحضانها من جديد.

صحيحٌ أنّ الهدف الرئيسي من زيارتي كان حضور خطوبة أخي حسّان على حبيبته رانيا، إلّا أنّي تمكّنت خلال تلك الأيّام القليلة من أن أستعيد الكثير من الأفراح التي سُلبت منّي. كنت على موعدٍ مع أختي عبير التي عادت من كاليفورنيا لتشاركنا فرحتنا،

وكنت على موعدٍ مع خالتيّ، ومع بيروت، ومع الذكريات، ومع الفرحة الممزوجة بالألم.

هناك، أخذت أحيا الانتظار بكلّ فصوله وفضوله وتوتّره. أنتظر أن يمرّ ماجد في ذلك الشارع أو أن يخرج من ذلك السرفيس. ثمّ أذهب إلى «باي روك»، وأجلس إلى الطاولة التي تعرفه جيّدًا ويعرفها. وأنتظره، فلا يأتي.

وصبيحة يومٍ قرّرت زيارة الفندق.

عشرون يومًا قضيتها في بيروت وأنا أتجنّب التفكير بالفندق، وأخشى المرور بقربه وحدي. مع أنّه المكان الأولى بالزيارة والأجدر بالسؤال. كنت أخشى أن يفاجئني ماجد هناك، فيظنّ أنّي جئت أبحث عنه. لم أُرد لكبريائي أن تصاب بجرحٍ آخر، وأن ينتابها وجعٌ جديد. مع ذلك ذهبت ولم أعبأ بما يجب وما لا يجب. لكنّي لم أجده هناك أيضًا.

كان الفندق يعجّ بالوجوه الجديدة التي لا أعرفها ولا تعرف عنّي شيئًا. وقفت للحظات أمام الكونتوار، أتحدّث مع موظفة الاستقبال وأسألها عن زميلتي نجوى التي عملت معها طيلة الأشهر الماضية، فأنبأتني بأنّها قد تركت الفندق منذ شهرين وأنّها لا تعرف عنها شيئًا.

خرجت من الباب الزجاجي وعيناي تدوران في ما حولي وتنظران بدهشة وكأنّي في مكانٍ باردٍ وغريب، آتيه للمرّة الأولى.

غادرت الفندق يومذاك على عجل، ثمّ غادرت بيروت بعد أيّام قليلة، وقلبي يعتصره الشوق والألم. لماذا عليّ الرحيل؟ لماذا عليّ أن أترك أختي وخالتي وكلّ من أحبّ خلفي وأذهب؟ لماذا لا نعيش جميعًا في مكانٍ واحدٍ يجمعنا؟ لماذا علينا أن نجاري الحياة

التي تفرّقنا، ونستسلم للأقدار التي تقصينا في مشارق الأرض ومغاربها تحت عنوان الرضى بالنصيب وبالقضاء والقدر؟

أسئلةٌ كثيرة استدرّت دموعي يومها، ووجدتني في مطار دبي من جديد، أحمل قلبًا مثخنًا بالأشواق، وحقائب مليئة بالوطن، متّجهة نحو شقّةٍ لا ذاكرة لها، لأمدّد ذلك الوطن هناك، قبالة صمتي، وأجلس بقربه، أبكي حنينًا.

عدتُ أرتاد العمل كلّ يوم بابتسامةٍ منمّقة، وأعود في المساء وقد أنهكني التعب. وعلى الرغم من أنّ حدّة ألمي قد خفّت كثيرًا خلال العام الذي انصرم في دبي، لم أنسَ ماجد تمامًا. لعلّي استعدت حضوره في قلبي أكثر فأكثر خلال زيارتي لبيروت. كنت أعلم جيّدًا أنّه لم يعد حاضرًا فيّ كما كان في السابق، وأنّي قد بدأت أفرغ من حنيني إليه ومن غضبي عليه، وأنّه لا بدّ لي في النهاية من أن أستسلم للنسيان.

لا شيء سواه سيشفيني من الألم، وسينتزع من صدري خنجر الحقد الذي ظننته أصابني بطعنةٍ لا تُشفى ولا تبرأ. ولكن، من أين سيأتي ذلك الذي يُدعى النسيان؟

لم أكن أعلم أنّي على موعدٍ قريبٍ معه، وأنّي سألتقيه قريبًا من حيث لم أحتسب، ولم أكن أدري أنّه سينتحل شخصيّة شابٍّ لبنانيّ يُدعى أحمد.

نعم، أحمد الذي لم أكتشف حبّي له إلّا في ما بعد، حينما وجدتُ قلبي متورّطًا به من حيث لم أشعر، وبعدما كنت أظن أنّ ماجد هو آخر ألوان الحبّ في لوحة أيّامي القاتمة.

التقيت أحمد في شهر ديسمبر 2004.

كان قد التحق حديثًا بقسم شؤون الموظفين في الشركة. وعلى عكس ماجد، لم تبهرني طلّته عندما رأيته أوّل مرّة، ولم يجذبني حبّه من النظرة الأولى، مع أنّه كان شابًا وسيمًا، وطموحًا، بتسعةٍ وعشرين ربيعًا وخيبتين.

وقد حدث يومًا أن تقاطعت حكاياتنا أنا وأحمد في مكانٍ ما، عندما اختبر كلٌّ منا الفقد على طريقته، وتذوّق بنفسه مرارة الحرمان على مائدة الحياة.

فقد روى لي ذات لقاءٍ قصّة حياته التي لطالما اعتبرها قاسية ومجحفة، بكثير من التفاصيل الدراميّة. كان يتحدّث وينفعل ويتفاعل وكأنّه يعيش المشهد لتوّه، فيما كنت أنصت إليه باهتمام، وأشاركه بشيءٍ من معاناتي، لعلّي أواسيه وأخفّف من شعوره بالنقص الأبويّ.

كان يروي لي مشاهد طفولته التي لم تكن تشبه الطفولة في شيء، متنقّلًا من كنف والده المشتعل سخطًا وظلمًا وجفاءً، إلى حضن والدته الطافح بالضعف والبكاء، ثمّ عاش بعد ذلك انفصالهما الفعليّ الاختياريّ وهو لا يزال في بداية سنّ المراهقة. وأظنّ أنّي أعي تمامًا ما معنى أن يبدأ الطفل حياته ببترٍ عاطفيّ، بعدما عايشت لسنواتٍ طويلة رحيل والدي، وغيابه المؤبّد.

أمّا أن يعاني أحمد من خيبةٍ عاطفيّة مؤلمة، يوم تخلّت عنه حبيبته قبل ارتباطهما بأيّامٍ قليلة، فهو ما أظنّني كنت أخبر الناس به، وبالألم الذي قد ينقشه في الفؤاد كوشمٍ أبديّ الأثر.

ولكن، برغم كلّ الظروف القاسية التي توالت على حياته في السابق، وبرغم الجفاف العاطفيّ الذي ألمّ به طيلة فترة خلاف والديه، لم أجد في طيّات حكاية أحمد شيئًا خارجًا عن حدود

المألوف، أو مغايرًا لما يعيشه معظم الناس في ظلّ قضايا الزواج والطلاق وما يتخللهما من شؤون وشجون، بل كنت أفوقه ألمًا بعدما تزاحمت في قصصي اللقطات الموجعة، والخسارات المفجعة.

لعلّنا تساوينا في شقٍّ من الحكاية، إلّا أنّي زايدت عليه بحزنٍ لا نهاية له. فطلاق الوالدين لا يُقارن بفجيعة فقدانهما إلى الأبد.

كنت كثيرًا ما أرتاح لوجود أحمد بقربي في المكتب المقابل، حيث كنّا نتحدّث أحيانًا، ونتبادل أخبار الغربة أحيانًا أخرى، إلّا أنّي لم أشعر يومًا بشرارة حبّه وهي تشتعل في أعماقي. كان كلّ شيءٍ يبدو عاديًّا معه، بلا تنميق أو ترتيب.

بقينا زميلين فقط، بلا أيّ نعوت إضافيّة، لفترةٍ تتعدّى الشهور الخمسة. نلتقي في بهو الشركة كلّ يوم، نتبادل التحيّات والمجاملات، ونتحدّث أحيانًا في ما يخصّ العمل وفي أمور أخرى.

لم تأخذ علاقتنا شكلًا واضحًا إلّا بعد أشهرٍ عدّة على تعارفنا، عندما سافر هو إلى لبنان في زيارةٍ تفقّديّة لوالدته، وبقي هناك أسبوعين.

كان كلّ شيءٍ في غيابه باهتًا، لا فرح فيه، واستغربت الضياع الذي حاصرني آنذاك، والملل الذي استحوذ على أوقاتي في العمل. بذلت قصارى جهدي لكي لا أنساق خلف وهم اشتياقي وحبّي له، لكنّها كانت الحقيقة، الحقيقة الساطعة التي تجلّت بوضوحٍ في عينيّ حينما رأيت أحمد يطلّ من باب المكتب بعد عودته إلى دبي.

كان يحمل لي في نظراته الملهوفة وابتهاجه الرنّان كلّ علامات الحبّ. وكنت أدّخر له بدوري مؤونةً عاطفيّة تكفيه عمرًا بأكمله،

وتسدّ رمق الغرام الذي قد بدأ يترعرع في قلبينا.

هكذا خطا الحبّ خطواته الأولى نحونا، بلهفةٍ صامتة وببطءٍ متعمّد، وكأنّنا كنّا ننتظر ذلك الوقت المستقطع لندرس عواطفنا بدقّة أكثر، ولنرسم خطّة ارتباطنا المستقبلي بالكثير من التأنّي والتوافق.

صرت ألمح في عينيْ أحمد المزيد من ومضات الغرام المشتعل والمتزايد احتراقًا يومًا بعد يوم، وصار يحوطني هو باهتمامٍ واضح، ويشعرني بقربه من عالمي ومن معظم اهتماماتي ومشاريعي.

أصبحنا نلتقي باستمرار، بسببٍ وبلا سبب. نخرج معًا خلال فترات استراحة الغداء، ونسهر برفقة حسّان وأصدقائه في الأمسيات الطويلة، حيث نتبادل الكثير من الأخبار والنكات والخيبات، آملين أن تبادلنا الحياة بعض مشاعر الحبّ الذي نكنّه لها.

وباعتبار أنّي كائنٌ شتوي، شهدَت الحياة قدومي إليها ذات ديسمبرٍ قارس، وربّما لاعتبار العلاقة الوطيدة التي كانت تربطني منذ زمنٍ بعيدٍ بهذا الفصل الدافئ رغم أمطاره، والمثقل بالرومنسيّة رغم برودته، والذي غالبًا ما كان يحمل إليّ بين دفّتيه مفاجآتٍ عاطفيّة ونوباتٍ عشقيّة على اختلاف ألوانها، كان لا بدّ لشتاء 2006 من أن يمطرني حبًّا بعد انحسارٍ وجفافٍ داما طويلًا، كما كان لا بدّ للأفراح من أن تسجّل مرورًا صاخبًا في معبر قلبي يوم ألبستنا أنا وأحمد خاتم الخطوبة، وأعلنت عن مشاركتنا رسميًّا في فعاليات مشاريع الزواج المقترحة لربيع 2006...

صدقتنا الحياة وعدها هذه المرّة، وتوّجتنا بأكاليل الفرح الأبيض.

تزوّجنا إذًا. وأشهرنا فرحتنا في أيّار من عام 2006، وسط ابتهاجٍ عائليّ باذخ. كان من أسعد أيّام حياتي وأنا أجلس فوق عرش أحلام أحمد، حيث أدّيت أمامه قسم الملكة بأن أصون أفراح عينيه، وأن أقاسمه هبة القدر، وأن أشرب معه نخب الحياة السعيدة.

وكانت دبي دائمًا راعية عهودنا وعرّابة حبّنا، هي التي شهدت أحلى لحظات ارتباطنا، وهي التي وصلت ما انقطع في لحظات يأسنا وسخطنا من الحياة، وهي التي فتحت ذراعيها لاستقبال أجمل أفراحنا يوم جسّد حسن بقدومه في منتصف نيسان 2008، أروع هبات الله لنا.

لم تغب عنّا البهجة منذ دخول حسن إلى حياتنا، ولم نفتقد الفرح مذاك يومًا. كان هو عنوان سعادتنا الدائم ومحلّ إقامتها، وكان هو مصدر توافقنا ومحطّ أحلامنا. كنّا نكتشف معه يومًا بعد يوم كيف أنّنا لم نحيَ طفولتنا بعد، ولم نتزوّد من مرحها، فنشاركه طفولته هو، ونقاسمه شقاوتها.

فجأةً تسارع الزمن، وتعجّلت عقارب الساعة رحيلنا عن دبي. كان حسن قد أطفأ فيها شمعتين عندما وجَبت علينا العودة إلى بيروت بعدما تدهورت حالة والدة أحمد الصحّية، فتعذّرت إمكانيّة بقائها في المنزل وحدها بعد ذلك، وكان على ابنها البكر أن يرعاها في ظلّ ظروفها المرضيّة الصعبة، وأن يشدّ من عزيمتها التي بدأت تنهار يومًا بعد يوم.

عدنا إلى بيروت أخيرًا بعدما أودعنا دبي قسطًا من عمرنا وذكرياتنا وأفراحنا، وأقبلنا على بيروت بلهفة الطفل الذي وجد حضن أمّه بعد طول غياب.

باشر أحمد بافتتاح عملٍ تجاريٍّ حرّ، وبقيت أنا رفيقة حسن الدائمة، ورفيقة جدّته. أجالسهما وأخدمهما وأقضي معهما معظم أوقات النهار. كنت أستعيد بذلك فرحتي ببيروت، وأحاول أن أعوّض ما فاتني من وقتٍ خارج حدود زمانها، أتزوّد من كلّ شيء فيها ومن كلّ ما قد يباغتني رحيله يومًا.

كنت آنس جدًّا بوجود والدة أحمد معنا، وأسعد وأنا أراها تحيطنا بدعائها وحنانها الذي لطالما عوّضني عن غياب والدتي، إلّا أنّها رحلت سريعًا عن عالمنا، وتركت لأحمد ما يكفيه من حزنٍ وألمٍ على فراقها.

بعد عدّة أشهرٍ على وفاتها وجدتُني بمفردي في المنزل، أجالس الوحدة والملل، وخاصّةً بعدما بدأ حسن بالذهاب إلى الحضانة. فلا أمرّ من أن يعتاد المرء على العمل والحركة والحضور وسط الناس، ثمّ يجد نفسه فجأةً وحيدًا بين جدرانٍ أربعة. لذا لم أتردّد في البحث عن عمل يقيني رتابة تلك الأيّام، وسرعان ما وجدتُني أعمل في إحدى الشركات الناجحة، وسط جوٍّ من الألفة والاجتهاد، وأستعيد كلّ خبرتي السابقة في العمل وفي الحياة. إلّا أنّه لم يخطر ببالي مطلقًا أنّ هذه الحياة قد تمكر بي فجأةً وتعيدني مرّةً واحدة إلى قعر ذاكرتي المريرة.

لم أتخيّل أنّها قد تفتح لي باب الماضي على مصراعيه وترغمني على الدخول إليه، ثمّ تمنعني من أن أستأنف حياتي بعيدًا عن نقطة جاذبيّته وخلافًا لعجلاته التي كانت تدور إلى الخلف وتمرّ بي ببطء على كلّ الحواجز التي استوقفت قلبي، وعلى كلّ نقاط التفتيش التي عادت تقلّب في دفتر ذاكرتي وفي أوراق نسياني الثبوتيّة، بحثًا عن اسمٍ منسيّ لرجلٍ يبدو أنّه لم يكن منسيًّا أبدًا...

كان النسيان قد قرّر أن يحتفل يومها بعيد ميلاده التاسع في عقر ذاكرتي، ويعيد عليّ رغمًا عنّي شريط الماضي البعيد، ويكرّر على مسمعي في المنام وفي اليقظة اسم رجلٍ واحد، يُدعى ماجد، كان من المفترض أن يكون في عداد المفقودين في سجلّ الزمن، ولكن عُثر عليه ممدّدًا في أعماق أعماقي، وها هي الحياة تباشر بنجدته وتحاول إنعاشه بقوّة ليقف أمامي من جديد وليكمل دوره الذي توقّف خطأً ذات يوم في مسرحيّة أيّامي.

عاد ماجد إذًا... واستفاق الماضي أمس على وقع خطواته، وضجيج حضوره.

6

نعم، لقد عاد ماجد يوم أمس. ولم يكن حلمًا ما رأيت.

لم يكن وهمًا سقوطي المفاجئ بين يديه، ولم تكن ظلالًا تلك الدموع التي ملأت عينيه إشعارًا لي بالندم، وبأشياء أخرى.

عاد ماجد إذًا وعادت أشواقي الهرمة لأثواب صباها وزينتها، وجاءني الفجر بحلّةٍ جديدة ورونقٍ معتّق، بعدما استيقظ فجأة على ابتسامته، فتعثّرت الشمس بغمزة عينيه الدافئتين.

استيقظ الصباح أخيرًا بعد طول انتظار، ولكنّه لم يكن صباحًا ككلّ الصباحات السابقة، بل كان صباحًا استثنائيًّا امتزجت خيوطه بشعاع حبٍّ قديمٍ جديد، لمع في أحداق ماجد أمس. استفقت على الأريكة في ذلك اليوم، بعدما أمضيت عليها هنيهاتٍ من النوم المتقطّع، نوم المترقّبين. كنت أنتظر بفارغ الصبر حلول الفجر لأرى إلى أين سيأخذني القدر هذه المرّة، وما هي الخطوة التالية في مسلسل التشويق الذي بدأ مساء أمس عند مدخل عمارتنا؟

هل سيعاود ماجد محاولة التحدّث إليّ مرّةً أخرى؟ هل سيطرق بابي من جديد؟ هل كانت تلك دعابةً عابرة انتهت مع رحيله أمس، أم هي بداية فصلٍ جديد لي معه؟

عاد ماجد إذًا بعد طول غياب، وعادت الحياة تنفخ في رئتيّ أوكسيجينًا من نوعٍ فريد وبلون الحبّ الغضّ.

تداخلت عواطفي ذلك الصباح، كلّ ألوان عواطفي بنكهاتٍ متعدّدة ومبهمة، كثيرة التمازج والتباين في آن واحد، ووجدتني على حافة سؤالٍ مزدوج: لماذا عاد ماجد الآن؟ وماذا يريد منّي؟

أيُعقل أنّه لا يزال يحبّني حتى اليوم، وعاد ليطالبني بذلك الحبّ مع أثرٍ رجعي؟

وأنا؟ هل تراني نسيته طيلة السنوات الماضية، أم نسيت بعده معنى الحبّ ولهفته، وانخطاف القلب وارتعاشه؟ أتراني أحببت أحمد حقًّا، أم كنت أعيش معه نوعًا آخر من أنواع الحبّ الواهم؟ نوعًا مزيّفًا باحتراف، لا يُكتشف زيفه إلّا مع ظهور النسخة الأصليّة له؟

حاولت يومها أن أمارس طقوسي الصباحيّة اليوميّة مع زوجي بطريقة اعتياديّة، وكأنّ شيئًا لم يكن. جهّزت قهوتنا التركيّة وحرصت على أن أبدو عاديّةً تمامًا، كي لا ترصد عيناه تشوّش أفكاري، وشرودي الذي لاحظه على وجهي أمس، بعد لقائي بماجد. ومع ذلك، لا أظنّني نجحت تمامًا... فلقد كنت أستمع إلى حديث أحمد دون أن أجيب، وأكتفي ببعض الإيماءات المتعبة من حينٍ لآخر.

كانت عينا ماجد الدامعتان تشغلانني، وتقفزان أمامي من كلّ شيء ألمسه أو أراه. كنت ألمحهما في كلّ مكان، في فنجان القهوة الصباحيّة، في زهرة الفلّ النائمة على شبّاك صالتي، في قطرات المطر المبعثرة فوق زجاج نافذتي، وفي صوت فيروز الذي كان يصدح قربي عاليًا «رجعت الشتويّة... رجعت الشتويّة... ضلّ افتكر فيّي...».

رجعت الشتويّة، صحيح، ولكن يبدو أنّها عادت صاخبة، هادرة، بمزاجٍ ثمل، تخبّئ تحت عباءتها أعاصير عاطفيّة مضطربة.

استغرب زوجي كسلي عندما لاحظ أنّي لا أزال أرتدي ملابس النوم ولم أستعدّ بعد للذهاب إلى العمل، فأخبرته بأنّي أشعر بوعكةٍ صحّية مباغتة وأرغب بالبقاء في المنزل.

لم يبدِ أحمد استغرابًا ولم يناقشني، بل اكتفى بأن طبع قبلةً على وجنتي، واصطحب حسن إلى الحضانة وهو يوصيني بأن أستريح تمامًا. ابتسمت له وودّعتهما على الباب وأنا أعتذر له صمتًا عن أولى كذباتي.

آه من كذب النساء! هل كان رغمًا عنّي، أم أنا حاولت أن أقنع نفسي بذلك وأبرّر فعلتي؟ أنا التي لم أُخفِ شيئًا عن أحمد منذ بداية علاقتنا، وأنا التي لم أظنّ يومًا أنّي قد أضطرّ لأن أكذب عليه لأيّ سببٍ كان، ها أنا ذي أضبط نفسي متلبّسةً على سلّم الكذب، أتسلّق درجاته الأولى ولا أدري إن كنت سأضطرّ للصعود أكثر في الأيّام المقبلة.

ولكنّي لم أجد ما أقوله له حينها، ولم يكن بإمكاني أن أخبره بالحقيقة. كيف سأقول له إنّ تلك الوعكة الصحيّة المباغتة ما كانت سوى وعكة عاطفيّة مزمنة ومن النوع الخبيث، وعكة لم يتعرّف إليها الطبّ بعد، ولم يجد لها تسميةً مناسبة؟

وحدهم الأطبّاء النفسيّون يعتقدون بوجودها ويعتبرونها أكثر الفيروسات خطورةً، لأنّها من النوع الحسّاس الذي يستقرّ طويلًا في الذاكرة، ويضرب خلايا القلب، ويستعصي على الشفاء.

فرغ البيت إذًا وأصبحت وحيدة من جديد وجهًا لوجه مع الذاكرة، ومعه... أصبح بإمكاني الآن أن أستحضر ماجد دون خوفٍ من أن يراه

أحدٌ في عينيّ.

كنت أشعر بأنّه قريب جدًّا، لعلّه ينتظرني في الخارج، أو لعلّه يطوف حول المنزل بانتظار خروجي، أو ربّما يجلس في المقهى المقابل يترقّب أن أفتح باب الشرفة وأناديه.

وإذا بي أركض في كلّ الاتجاهات وفي الوقت نفسه، دون أن أشعر، وأحتار أين سأجده أوّلًا. أقف تارةً أمام شبّاكي، وأخرج تارةً أخرى إلى شرفتي، ولكن، لا أجده.

أتراه غادر الحيّ أمس، أم بقي هنا ينتظر؟ هل بات ليلته هنا، عند أعتاب غرفتي، يراقب تقلّباتي ويترقّب ردّة فعلي على رؤيته، ثمّ رحل عند الفجر؟ لست أدري. ولكنّي كنت أشعر بأنّه معي، قريب منّي، يشاركني القهوة والحديث، ويصغي معي إلى عزف المطر على أوتار نافذتي.

كان ماجد حاضرًا معي ذلك الصباح، يشهد بأنّي لم أبرح عينيه يومًا منذ رحيله، وأشهد معه بأنّ كلّ شيءٍ فيّ قد انقلب منذ أمس رأسًا على عقب، وأنّه عاد ليتربّع على عرش قلبي من جديد.

كنت أعلم منذ اللحظة الأولى التي لمحته فيها أمس أنّي لن أبقى ندى التي كانت قبل مجيئه، وأنّنا سنتدهور معًا في سراديب الظلمة، حيث تقبع المشاعر الفاسدة والرغبات المكبوتة.

أشياء كثيرة تغيّرت وستتغيّر إثر عودته.

أشياء كثيرة عادت معه، وأشياء أخرى كانت تنتظره فيّ دون أن أشعر بها.

مشاعر كثيرة تزاحمت في قلبي فاردةً جسدها، بعدما كانت تتراكم منسيّةً في مكانٍ صغيرٍ في أعماقي، كما تتكوّم أشياؤنا القديمة المهمَلة في قبو بيتنا السفليّ.

كلّ تلك المشاعر المتعبة انتفضت في أعماقي من جديد، وأفسدت عليّ ندى الوادعة التي كنتُها حتى مساء أمس.

نسيت فجأةً كلّ حقدي عليه وكلّ معاناتي بسببه، وتملّكتني رغبةٌ في الحبّ، رغبةٌ في أن أكون معه، وفي أن أكون له كما لم يحدث أبدًا من قبل.

رحت أستذكر كلّ اللحظات التي ضحكنا فيها معًا، وكلّ المقاهي التي تركنا فيها بعضنا... بعض جنوننا وهمسنا وخوفنا.

مررتُ بكلّ القبل التي أمطرها ذات وداعٍ في كلّ زوايا وجهي. كانت دافئة وغضّة وكأنّها حدثت قبل تسع ثوانٍ لا تسع سنوات.

ثمّ انتفضتُ فجأةً في مكاني مخافة أن أرحل مع الوهم إلى مكانٍ لا عودة منه أبدًا، وعدتُ بعقلي إلى مرسى الأسئلة التي قيّد ماجد أجوبتها بسلاسل وأقفال لا مفاتيح لها عندي، بل كلّها معه وفي قبضته، ولن أتمكّن من الحصول على إجابةٍ واحدةٍ منها، إن لم يحرّرها هو بيديه ولسانه وقلبه، فهل سيفعل؟

هل سيقول لي لماذا يعود اليوم، بعدما جفّ حبر قصيدة حبّه في قلبي منذ زمنٍ بعيد؟

ماذا يريد منّي؟ هل سيعود اليوم أيضًا ليقف أمام باب العمارة بانتظار موعدنا السرّي المقبل، أم هو اكتفى برؤيتي أمس، ولم تغرِه ملامحي التي نضجت في غيابه بلقاء آخر أكثر قربًا ودفئًا، أتراه لا يكترث بأنوثتي التي ازدادت أضعافًا وأضعافًا بعدد أيّام قطيعتنا؟

هل سيعود لنتحدّث مرّةً أخيرة وجهًا لوجه، قبل انفجارنا الأخير، أم بات يخشى أن تصيبه شظايا حبّي في صميم رجولته، فيصبح عاجزًا عن العيش معي، وبدوني في آن واحد.

عند العاشرة والنصف صباحًا رنّ هاتفي الجوّال عارضًا رقمًا مجهولًا. أتراه هو؟ أسرعت لأجيب وإذا بصوتٍ نسائيٍّ هادئ يحادثني:

– مدام ندى، أنا سوزان فرج زوجة الضابط نبيل فيّاض. نحن لم نلتقِ من قبل لكنّي أرجو أن توافقي على استقبالي في منزلك لعشر دقائق فقط، ففي جعبتي رسالة لك من ماجد.

انتابتني نوبة صمتٍ مفاجئ، لم أفق منها إلّا وأنا أفتح الباب على مصراعيه لتدخل منه سيّدة شابة، باذخة الجمال والأناقة.

صافحتني بأدب كبير بعدما رسمت على شفتيها ابتسامةً عريضة، وعرّفتني بنفسها.

ابتسمت لها بدوري دون أن أستوعب في تلك اللحظة الحبكة التي نسجت أحداث قصّتي، ووجدتني أجلس معها في الصالة وأصغي إليها وعيناي تتّسعان ذهولًا ودهشةً، وكأنّنا في عالمٍ آخر، أو في مشهدٍ من قصّةٍ دراميّة خياليّة.

بدأت حديثها بشرح أواصر الصداقة المتينة التي تربط زوجها الضابط المرموق بماجد منذ مدّة، ثمّ أردفت:

– على فكرة، أنا أعرفك جيّدًا وإن لم نلتقِ فعلًا.

أعادتني جملتها تلك عشر سنواتٍ إلى الذاكرة عندما قال لي ماجد في لقائنا الأول إنّه يعرفني تمام المعرفة، وإنّه يشعر بأنّه قد عاش معي قسطًا من حياته. يا لسخرية القدر!

لم أجبها ولم أنبس ببنت شفة، فتابعت:

– لقد تعرّفنا أنا ونبيل بالصدفة إلى ماجد في فرنسا، ونمَت بيننا منذ ذلك الوقت صداقة وأخوّة حقيقيّة، وأصبحنا عائلةً صغيرة أُضيف

إليها نفسٌ خليجي، وأصبحتِ أنت دون علمٍ منك فردًا حاضرًا معنا وغائبًا عنّا في الوقت نفسه.

قاطعتها والدهشة تقفز من عينيّ:

– عفوًا سيدتي؟ لم أفهم.

فأجابتني بابتسامةٍ تختزن معاني كثيرة، تمامًا كابتسامة ماجد، ثمّ أضافت:

– مدام ندى، هل لي أن أناديك ندى وتناديني بدورك سوزي، ولنتجاهل منذ الآن كلّ الألقاب التي لا تليق بمعرفةٍ عمرها أشهر، من ناحيتي أنا على الأقل؟

– طبعًا، طبعًا، تفضّلي، تابعي.

تابعت سوزي كلامها بنبرةٍ حنونة ومحبّبة:

– قد تعجبين حقًّا ممّا أقوله لك، ولكنّها الحقيقة. لقد كنتِ دومًا محور حديث ماجد، كلّما التقينا به. لم يتوقّف عن التفكير فيك طيلة السنوات الماضية، ولم يتمكّن من نسيانك يومًا.

– في الحقيقة، لست أدري ما أقول. ولكن، لعلّه لم ينسَ أيضًا أنّه كان هو سيّد الاختيار، وأنّه هو الذي قرّر الرحيل فجأة.

– ندى، اسمعيني جيّدًا. أنا أعلم تمامًا أنّ ما حدث لك كان بمنتهى الظلم والقسوة، ولكن صدّقيني، لقد كان أمرًا مكتوبًا عليكما، ولا يد لماجد في ذلك. ألا تعتقدين بأنّنا لا نختار أقدارنا، بل إنّ الحياة هي التي تختارها لنا وترمي بنا على دروب المصادفات المدروسة مسبقًا؟

– بلى، حتمًا. أنا أؤمن تمامًا بأنّنا لسنا سوى حجارة شطرنج في مربّع الحياة، تلعب بنا متى تشاء، وتحرّكنا كيفما يحلو لها

وتضعنا في الخانة التي تختارها لنا بنفسها، ولكن ما علاقة كلّ ذلك بي اليوم؟

– عندما ستستمعين لما حدث مع ماجد ستكتشفين بنفسك أنّ يد القدر هي التي خلطت الأوراق وأنهت اللعبة لغير مصلحتكما. صدّقيني... لقد روى لي ماجد قصّته معك منذ اليوم الأوّل، وأخبرني بكلّ تفاصيل انفصالكما، وكيف مكرت بكما الحياة ذات يوم وافترقتما، ولكنّه لم يجد سبيلًا ليشرح لك كلّ ما حدث.

– حقًّا، والآن وجده؟ بعد كلّ تلك السنين؟ بعد كلّ تلك الليالي التي تركها لي بظلمها وظلامها ومرارتها؟

– صدّقيني، لقد بحث عنك طويلًا طيلة الأعوام الماضية ولكنّه لم يفلح في العثور عليك.

– ولماذا تراه يبحث عنّي؟ ماذا يريد منّي الآن؟ لقد انتهى كلّ شيءٍ بيننا منذ زمنٍ طويل، فماذا يريد منّي؟

– يريد الصفح والغفران.

– وماذا قد يفيده غفراني الآن؟ لقد انقضت سنوات على ذلك ولا أظنّه يعبأ بشعوري الآن، بعد كلّ هذا الوقت.

– ندى، دعينا نتفق في لقائنا الأوّل على أن لا أكون سوى همزة وصلٍ بينك وبينه، وأن لا أتحدّث نيابة عنه إلّا إذا أراد هو ذلك. أمّا اليوم فهو يريد أن يحدّثك بنفسه وقد أرسل لك معي هذه السطور، وهو يرجو أن تقرئيها جيّدًا، وأن تمنحيه فرصة الغفران.

استفزّتني قصّة سطوره المبهمة تلك، ولكنّي حاولت أن أقاوم رغبتي وفضولي بأن أستمع إليه وأقرأه، فتماسكت جيّدًا ولم أضعف أمام سوزي. لم أشعرها بأنّي توّاقةٌ لسماع أخباره وبأنّي أكاد أُجنّ لأعرف منه ما الذي أتى به وماذا يريد منّي. فقلت لها:

– مدام سوزي، أنا أقدّر لك فعلًا هذه الخدمة التي تحاولين إسداءها لكلينا، ولكن كما تعلمين أنا الآن امرأة متزوّجة وأحبّ زوجي ولا أريد لعلاقتنا أن تختلّ لأيّ سبب. أمّا ماجد، فهو ليس سوى ماضٍ لم يعد يعنيني من قريبٍ ولا من بعيد، لذلك أرجو منك أن تعيدي له الرسالة، وأن تقولي له أن يرحل بعيدًا وألّا يفسد عليّ حياتي مرّةً أخرى.

هل كنت أكذب في كلّ ذلك، أم كنت أقول ما كان يجول في لاوعيي؟ لست أدري. لعلّي قلت نصف الحقيقة، وصدقت في جزءٍ فقط، أما في الجزء الآخر فقد كنت حتمًا من أمهر الكاذبين.

كيف لا تعنيني أخباره وأنا أجلس منذ خمس عشرة ساعة أفكّر في الأقدار التي قادته إليّ، وفي النوايا التي يضمرها قلبه لي.

لكنّ سوزي كانت وفيّةً له أكثر ممّا ينبغي. لم تكترث بكلامي ولم تنتظر لأتسلّم منها الرسالة، بل وضعتها على الطاولة المجاورة لمقعدها، ثمّ قالت لي وهي تستعدّ للمغادرة:

– ندى، أريدك أن تعلمي أنّي أكنّ لك كلّ محبّة وتقدير، وأنّي لا أريد أن أزعجك بتطفّلي وإصراري ولكن صدّقيني، لو كنت مكانك الآن لاحتفظت بالرسالة حتى وإن لم تكن لديك رغبةٌ الآن في قراءتها، فقد يأتي يوم ترغبين في ذلك وتتمنّين لو أنّك على الأقلّ اطّلعت عليها.

صافحتني من جديد وهي تتمنّى لي يومًا سعيدًا وتتّجه نحو الباب. حاولت أن أستبقيها لفنجان قهوة سريع لكنّها اعتذرت قائلة:

– أرجو المعذرة، لا أستطيع، فالسيّارة تنتظرني في الشارع ولا أريد أن أثقل عليك. كفاك ما حدث لك حتّى الآن.

أتراها تعرف عنّي وعن قصّتي معه أكثر ممّا أعرف أنا وأكثر ممّا ينبغي لها أن تعرف؟ استوقفتها على الباب عندما لمع في رأسي سؤالٌ خاطف:

– عذرًا على السؤال ولكن، هل لي أن أعرف كيف حصلتم على رقم هاتفي وعنوان بيتي؟

فابتسمت ابتسامة ماكرة ختمت بها زيارتها قائلة:

– لعلّك نسيتِ أنّ نبيل ضابط في الشرطة. في الرسالة التي في حوزتك أجوبة عن كلّ أسئلتك، فلا تسألي أحدًا غيرها. عمتِ صباحًا.

أغلقتُ خلفها الباب على مهل وكأنّي لا أريد لهذا الحديث أن ينتهي، ولا أريد لسيرة ماجد أن تتوقّف. كم كذبت حينما ادّعيت أنّ أمره ما عاد يعنيني! كذبت بامتياز. ثمّ تنبّهت لعبارتها حول سيّارة تنتظرها في الشارع. أيُعقل أن يكون ماجد داخلها؟ أيكون هو السائق الذي سيقود قدري اليوم، حاملًا في جعبته ما بقي من أحلامي؟

هرعت إلى الشرفة على عجل، وقلبي يخفق بين ضلوعي. نظرت إلى الشارع في الجهة المقابلة، كانت سيّارة «بي. أم. دبليو» سوداء اللون، وهي نوعه المفضّل، مركونةً على جانب الطريق أمام المقهى المقابل، حيث ينتظر ماجد عودة سوزي قرب إحدى الطاولات، وفي يده فنجان قهوة.

دُهشت لرؤيته، ولم أستطع الاختباء من نظراته، وإذا بعينيّ تتدحرجان سريعًا من الأعلى، وتحطّان في أعماق عينيه.

لم تمهله عودة سوزي لتقول لي عيناه ما كان يرغب هو في قوله، فتوجّه نحو السيّارة وعيناه على الشرفة. ماذا تراه كان ينتظر

حينها؟

هل كان ينتظر عودة سوزي بخبرٍ يفرح قلبه، أم كان يتوقّع عودتي أنا؟ هل تراه ظنّ أنّي سأرافقها إلى السيّارة وأشكرهما على كرم الزيارة؟ كان في عينيه ما يفوق الكلام، وما يحتاج إلى عمر آخر لكي يفرغ من سرده لي.

وقبل أن يفتح باب السيّارة لينضمّ إلى رفيقته، أومأ إليّ، كما أوّل مرّةٍ التقيته، بإشارةٍ من رأسه وابتسامةٍ من عينيه... ومضى.

يا إلهي! ما الذي يحدث لي منذ البارحة؟ وما الذي سيحدث لي في الأيّام المقبلة؟ ماذا تخبّئ لي الأقدار؟ وما الذي ذكّرها بي فجأةً حتى ساقت إليّ هذا الكمّ من الأحداث؟

عدت إلى الصالة بمشاعر متضاربة. هناك، كانت بانتظاري مهمّةٌ صعبةٌ وشاقّة يلزمها الكثير من الشجاعة، رسالة ماجد التي كتبها لي بعد عمرٍ على الرحيل، والتي عليّ أن أقرأها جيّدًا.

أمسكت بالظرف الأبيض وقلّبته. لا شيء استثنائيًّا فيه، ولا علامة فارقة تميّزه. كان خاليًا من أيّ اسمٍ أو أيّ رمز. بياضٌ خالص. بياضٌ يستفزّ مشاعري وذاكرتي السوداء المتعبة، ويغري عينيّ بقراءة ماجد لأوّل مرّة بعد عمرٍ من الصمت.

فتحت الظرف بتردّد وأنا أسأل نفسي إن كان يحقّ لي فعلًا أن أقرأ رسالة رجلٍ كان ذات يومٍ حبيبي دون أن أخدش كرامة أحمد، حتّى في غيابه. ولكنّي تجاهلت أفكاري بسرعة، ورحت أحدّق في الورقة التي تختزن أمامي الآن أحداث سنواتٍ قضيتها حزنًا وبكاءً وألمًا. لم أصمد أمامها طويلًا، ولم أتمكّن من مقاومة فضولي بأن أفهم أخيرًا دوافع ماجد للرحيل.

كانت الرسالة مكتوبةً بخطٍّ جميل وبترتيب لافت، ما يعني أنّ ماجد قد أعاد قراءتها وكتابتها أكثر من مرّة، أي إنّه توقّف طويلًا عند منعطفات كلماتها، وتتبّع جيّدًا علامات وقفها ومعاني مفرداتها.

جلست على الكنبة تحت النافذة استعدادًا للقراءة، وكأنّني خفت من الدوار إن قرأتها وقوفًا. فأنا لا أريد السقوط من جديد في دوّامة كلماته، بل أريد أن أشفى منه وأن أداوي للأبد جرحي النازف من أعماق الماضي.

بدأت بالقراءة، وقلبي يخفق بين ضلوعي، وعيناي تجوبان السطور بذعر.

7

ندى،

لست أدري حقًّا إن كنت ستكملين يومًا قراءة رسالتي هذه، وتمنحينني فرصةً للحياة من جديد، أم سترمينها في سلّة المهملات وكأنّها فاتورة عمرٍ منتهي الصلاحيّة. ولست أدري أيضًا إن كان يحقّ لي أن أكتب إليك اليوم وأكتبك، بعد كلّ ما حصل، وبعد عمرٍ من الانتظار؟

أنا الذي خسرتك يومًا في أزقّة المصالح العائليّة والعواطف الأبويّة، هل لي إلى كفّارةٍ لديك، أمسح بها ذنوبي وأتقرّب بها إلى بعض غفرانك؟

هل لي إلى نظرةٍ عابرة من عينيك تغسل عنّي ذلك الإثم الذي يلاحقني منذ سنوات، مذ تركتك فريسة ورقة طلاقٍ مشؤومة ومتعسّفة، ورحلت؟ أعرف أنّك لم تنسي ولا أريدك أن تنسي، لأنّ في نسيانك اعترافًا بأنّي لن أحظى بفرصة الصفح أبدًا.

أنا الذي بأنانيّتي الفارغة نسبتُ قلبي إلى قلبك بدل أن أنسبك إليّ، وغرفت من بحر حبّك وعطائك حتى ارتويت، ثمّ في لحظة ضعفٍ منّي، شطبتُ بجرّة قلمٍ واحدة كلّ ما كان بيننا يومًا، وكلّ

الأماني التي نسجها لي قلبك، وكلّ الأحلام التي راودتنا معًا ودغدغت قلبينا معًا... ولم أكتفِ بذلك، بل رحتُ أتفنّن في قتلك وتعذيبك، وأهديك فقدًا بحجم حبّك لي، وبحجم احتياجي لك... فهل من توبةٍ نصوحة أكفّر بها عن كلّ ما مضى، وأستعيد بها بعضًا من احترامك لي واحترامي لنفسي؟

لعلّك ظننت طيلة السنوات الماضية أنّك كنت ضحيّة ماجد، وكبش فدائه أمام أسرته، وأنّي ضحّيت بك قبل أوان العيد، ولم أنتظر لتؤدّي مناسك فرحتك، ولتبدئي بتحضير أحزانك. ولكن صدّقيني... لقد كنت أنا الضحيّة الفعليّة في كلّ ما مضى... لقد خذلتني أحلامي مذ تركتك، وأسلمني غيابك لقبضة الندم المتربّص بي أينما ذهبت... وللخيبات بالجملة. صدّقيني. لا شيء سوى الخيبات المتتالية، وكأنّك كنت حرزي الذي مذ أضعته، أضعت كلّ معاني الحياة.

سأبدأ رسالتي الآن حيث توقّفت بنا الذاكرة، في قاعة مطار بيروت، يوم تودّعنا وتواعدنا بلقاءٍ لاحق في الكويت، في ذلك البيت الدافئ الذي جهّزتُه لنا، والذي انتظر قدومك طويلًا، قبل أن يُصاب بالخيبة.

عدت إلى الكويت يومها، وأنا على يقين من أنّي، بزواجي بك، أعلن الحرب على زوجتي حياة وعلى العائلة بأكملها، وأنّي سأُقاطع وأُخاصم من قبل الجميع، وأوّلهم والدي. ومع ذلك لم آبه ولم أكترث...

كنت أعوّل على الأيّام التي ستعيد المياه إلى مجاريها عاجلًا أو آجلًا... ولكن، ظهرت الحقيقة التي كنت أجهلها أو أتجاهلها، حينما اكتشفت أنّ زواجي بحياة كان أكثر من عقدٍ يربط بين اسمين أو

شخصين، بل كان معاهدةً بين عائلتين، مختومةً وموقّعة من كلّ الأطراف والأعضاء، وتشترط استمراريتها وفاقًا متبادلًا بيني وبين حياة، ظاهريًّا على الأقل... وأنّ أيّ إخلالٍ ببنود تلك المعاهدة سيعرّض حياة طرفين آخرين للسقوط المحتّم... وستدفع أختي حمدى ضريبة عواطفي المجنونة واندفاعي نحوك.

فحمدى، كما تعلمين، متزوّجة براشد ابن عمّنا، شقيق زوجتي حياة. ولطالما كانت علاقتهما محكومة بمزاجيّة زوجها، وضيق أفقه، على الرغم من حبّه الواضح لها. إلّا أنّ مكانة أسرته بالتوازي مع أسرتنا، واسم والده الرنّان، كانا يفوقان ذلك الحبّ أهميّةً وشأنًا في قلبه. فما إن سمع بخبر زواجي منك حتى ثارت ثائرته وهدّد بطلاق حمدى حفاظًا على كرامة أخته.

ثمّ زاد من تعقيد الأمور موقف والدي المتشدّد، ورفضه القاطع لعلاقتنا، وتواطؤه المستفزّ مع كلّ ما كان من شأنه أن يقضي على ارتباطنا.

أمّا أنا... فلم أكن لأكترث بحياة ولا بالعائلة ولا حتّى بوالدي وتهديده وعدائه... شيءٌ واحد كان يكبّل عزيمتي كلّما قرّرت الرحيل إليك، هو دموع حمدى الصامتة، وانكسارها. أعترف بأنّي كنت أضعف من أن أكسر قلبها، وأحطّم سعادتها، وأشهد بأنّي كنت أجبن من أن أشارك في مراسم طلاقها وأكون السبب في حرمانها من أبنائها.

هي التي لا ذنب لها سوى أنّها كانت أختي، وصديقتي وأمينة سرّي، فكيف كان لقلبي أن يطاوعني على خذلانها بعدما كنت حصنها وعزوتها؟ فآثرت الانسحاب، وأنا أدري تمامًا أنّي سأخذلك أنت، وأغتال قلبك أنت، ولا ذنب لك أيضًا سوى أنّك أحببتني بصدق،

وأهديتِ لي بوجودك في عالمي كلّ أسباب الفرح... ولكن، تأبى لنا الحياة أفراحًا كاملة، تستكثرها على قلوبنا، وتجتزئ منها ما يحلو لها.

لعلّي أخطأتُ فعلًا حينما تنازلتُ عنك بمحض ضعفي وسلبيّتي، إلّا أنّي لم أكن أملك الخيار... فلقد وُضعتُ رغمًا عنّي أمام خيارين اثنين لا ثالث لهما، وكلاهما قاتل، وعليّ فقط أن أختار الميتة الأقلّ ألمًا أو الأخفّ تعذيبًا لضميري، فإمّا أنت وإمّا حمدى... وكلتاكما نقطة ضعفي. إلّا أنّي في لحظة تجرّدٍ إنسانيّ، أحكمت عقلي، وقرّرت إنقاذ عائلةٍ مكتملة البناء على حساب عائلةٍ أخرى في طور التخطيط والإنشاء. ومع ذلك لم أسلم. لقد طاردني شبح ضميري طيلة السنوات الماضية، وأرعبني كابوس ظلمي لك، واغتيالي لأجمل الأفراح في قلبك. ولعلّ صمتي كان أسوأ ما ارتكبت. فكنت أجبن من أن أدافع عن نفسي أمام قلبك، وأضعف من أن أنظر في عينيك الحبيبتين.

وها أنا اليوم، بين يديك... قد ضقت ذرعًا بالسكوت وبالهرب...

ها أنا ذا أشرّع لك نافذة الحقيقة على مصراعيها. لو أنّك تدرين كم مرّةً جبت شوارع بيروت بحثًا عنك، عن عينيكِ، وعن غفرانك... وكم مرّةً أتيت حيّكم السابق في حارة حريك لعلّي ألمحك خطأً هناك، أو لعلّي ألتقي بخالتك أو أحد معارفك فيرشدوني إلى مكانك... ولكن عبثًا. فقرار رحيلي كان قد أخذك بعيدًا جدًّا... إلى حيث لم أتوقّع يومًا. فكيف كان لي أن أصدّق حينها أنّ ندى التي لم تهوَ السفر يومًا في حياتها قد تصبر على فراق بيروت لسنوات، وأنّها ستستعذب الإقامة في دبي، على مرمى خطواتٍ منّي، من قلقي وحزني واشتياقي.

آه يا ندى! ماذا عساي أقول لك، عن حزني، وعن الاشتياق الذي استوطنني في غيابك؟ وكيف أروي قصّة انتظاري لك... ومغامرات عمري وهو يبحث عن عمرك، عن طيفك، وعن خطوات قدميك؟

كيف لم أستشعر وجودك على مقربةٍ منّي؟ لكنت أتيتك إلى دبي على جناح الألم المرفرف في جسدي وفي روحي...

لكنت رميت عند قدميك آلامي وأحزاني، ولكنت شيّعت بك غربتي إلى مثواها الأخير. آه ما أفظع الغربة عندما تغزونا نهارًا جهارًا في عقر دارنا، وعندما تستفرد بنا وتغتالنا على مرأى من أوطاننا. تخيّلي أنّي كنت غريبًا وأنا في حضن أهلي ووطني وزوجتي، وأنّي كنتُ أعيش لكِ وحدك... وبكِ وحدك... وأراك تتكاثرين في سمعي وفي بصري وفي كلّ جوارحي يومًا بعد يوم.

كنت كهفي، وسكني ووطني الذي آوي إليه لأدفأ في حضن ذاكرته. آتيك كلّ يوم، هاربًا من وحشة العالم الذي كنت أعيش فيه دون أن أشعر يومًا بانتماءٍ حقيقيّ إليه. فقد كنت أنت انتمائي، وحلمي، وذاكرتي، وفرحتي وعذابي. لم أشعر يومًا بحجم خسارتي برحيلك كما شعرت اليوم، وأنا أرى اندهاش الحبّ في عينيك... لم أكن واهمًا طبعًا... ولن أصدّق أنّك لم تفرحي برؤيتي بعد كلّ تلك السنين، مهما حاولت الإنكار.

لقد شعرت اليوم بحرارة ذاكرتك وكأنّها أُصيبت للتوّ بنزلتها العاطفيّة السابقة... آه من تلك الذاكرة! كنت أراقبك وأنتِ تخلعين عنها عباءة الحاضر وتلبسينها أثوابًا من دانتيل الماضي، بكلّ إغرائها وفتنتها، وكأنّك تلوّحين لي بدعوةٍ لإحياء مراسم ذلك الحبّ بعدما انقضى أجله منذ وقت طويل.

ندى! لن أطيل عليك وأنا أروي لك تفاصيل بحثي عنك، لأنّي أظنّ أنّك لن تحتاجي إليها إن كنت تنوين الغفران. فكفى ذاكرتنا ما أصابها من جراحٍ وألم... ولا داعي لإجهادها أكثر، ولا نفع من استثارتها بعد اليوم... ولكنّي أريدها فقط أن تعرف أنّي لم أتعمّد إيذاءها يومًا، ولم أرغب في تعذيبها، وأنّي آسفٌ على كلّ ما حلّ بها من دمار. وأريدك أن تعلميها بأنّي بحثت عنك وعنها طويلًا طويلًا في كلّ الدروب التي عبرناها معًا، وفي كلّ الوجوه التي ابتسمت لنا فرحًا ذات يوم، ولكنّي لم أجدكِ...

لعلّي تأخّرت كثيرًا في العودة، ولعلّي أتيتك بعد فوات الأوان... ولكن، لم يكن بمقدوري أن أعود قبل ذلك. أعرف أنّه كان ضربًا من الجنون والضعف والاستسلام، ولكن كان من المستحيل أن أعود، وأنتِ أكثر من يعرف ذلك، فأنت أكثر الناس علمًا بعشقي لبيروت وارتباطي بها.

لعلّك تدركين الآن معنى أن أهجر بيروت ثلاث سنواتٍ على التوالي، ومعنى أن أنقطع عنها وعن مواسم أمطارها وأعراس فجرها ثلاث سنوات. هو البؤس بعينه... وهو الموت بعينه، كان يطوّقني بقبضته المحكمة، ولم يطلق سراحي إلّا بعدما فرغتُ من كلّ معاني الحياة، وظللت ممتلئًا بك.

أتيت بيروت أخيرًا... عدتُ اليها لأوّل مرّة بعد رحيلي عنك وعنها... كان الهدوء قد بدأ يلقي أثوابه، بعدما وضعت حرب تمّوز أوزارها، وعادت مدينة الحبّ لتلملم أحزانها وتوقّف نزف الجرح الذي أصابها غدرًا. لم أكن أنوي العودة إلى بيروت في ذلك الوقت. كنت قد بدأت أرتّب حياتي بعيدًا عنها، لأنّي كنت أخشى أن أراها من جديد فلا أتركها أبدًا بعد ذلك، تعويضًا عمّا فاتني منها ومنك.

كنت أخشى لقائي الأوّل بها. أخجل من ذاكرتها التي لم تنسني حتمًا. أخشاك أنت. أخشى لقاءك، وأخشى حقدك عليّ واشتياقي لك... ولكن، كان مستحيلًا أن لا أعود بيروت في مرضها، وفي أشدّ أوقات ضعفها، وكان مستحيلًا ألّا آتيها بحثًا عنك، بعدما أمضيت فترة الحرب كلّها وأنا مسكونٌ بفكرة موتك، أقلّب نشرات الأخبار واحدةً تلو أخرى بحثًا عن اسمك في قائمة الشهداء.

لقد كان جنونًا ما حلّ بي وأنا أسمع على شاشة التلفاز نبأ حيّكم الذي قُصف بوحشيّة، وأرى مشهد بنايتكم التي شيّعتها الصواريخ تحت الأنقاض. عندها أدركت أنّي لم ولن أفلح أبدًا، لن أستطيع دفنك في أعماقي وأنا أراك تُبعثين كلّ يومٍ في عينيّ. شعرت بأنّي لم أكن حيًّا بعيدًا عنك، وأنّي سأزداد موتًا إن لم آتِكِ، حتى وإن كنتِ جثّةً تحت الأنقاض.

كان لا بدّ من أن آتيك وأعتذر لك وأنا أركع في حضرة صمتك، وأطلب الغفران. ووجدتني بعد أيّام من وقف الحرب، أجوب شوارع بيروت بحثًا عنك. كنت أحلم أن ألتقيكِ وأنتِ تعبرين أحد الأرصفة التي اشتاقتنا معًا. كنت أحلم أن ألمحك للحظاتٍ فقط، وأفكّر كيف تراني سأنظر في عينيك؟ وماذا تراني سأفعل؟ هل أصافحك وأبتسم، أم أضمّك وأبكي؟ وماذا عساي أقول لك؟

قصدت مباشرةً فندقنا الذي جمعنا ابتداءً، بعدما نجا من قصف الطائرات، ولكنّك لم تكوني بانتظاري كما كنتِ دائمًا. كان كلّ شيءٍ فيه كئيبًا ومملًّا، ولم أعثر على أيّ خيطٍ قد يرشدني إلى مكانك، فذهبت إلى حيّكم حيث كنت تسكنين مع خالتك. كان الدمار يحيط بكلّ شيء، وكأنّ خريطة المكان قد نُسفت تمامًا. أبنية مدمّرة وشوارع تائهة تبحث عن ذاكرتها، فكيف أجدك وسطها؟

حاولت وحاولت... ولم أفلح... نقّبت عن وجهك بين أكوام الوجوه المنسيّة هناك وسط الحزن... ولم أرَك. بحثت عن صوتك في كلّ أسلاك الهواتف التي كنت أحفظ أرقامها عن ظهر قلب... ولم أعثر على شيء.

عدت بعدها إلى الكويت أجرّ أذيال اليتم...

يتيم أنا بدونك يا ندى! يتيمٌ أنا... كنت أبحث عن يدك التي ستمسح على رأسي فلا أجدها، وأسأل عن عينيك اللتين ستمحوان من قلبي كلّ ما علق به من حزن... ولا ألمحهما أبدًا.

عدت إلى الكويت. عدت إلى غربتي ووحدتي وفي أعماقي وجهك، أدعو الله ليل نهار أن تكوني على قيد الحياة، وأن تكوني بخير. لم أتحمّل فكرة أنّنا قد لا نلتقي من جديد أبدًا، وأنّك قد تكونين غادرت عالمي قبل أن تغفري لي.

صرت أراك في الشيب الذي بدأ يعبث بشعري، وفي التجاعيد الصغيرة التي ارتسمت في محيط عينيّ، وفي أولادي الذين يكبرون أمامي كلّ يوم، فأعتذر من عمري الذي يفتقدك وهو ينفق أحلى أيّامه بعيدًا عنك ثمّ أعود وأبحث من جديد في كلّ الأمكنة التي عرفتك فيها ولكن... دون جدوى.

كنت كثيرًا ما أحدّث نبيل وزوجته عنك وكأنّك طقسٌ روحيّ سماويّ، أو قدّيسةٌ أنتظر مرورها كلّ يوم لتقف عند وسادتي في المساء، وتقرأ على مسمعي تعويذاتها وصلواتها. كنت حديثي الذي لا ينتهي، ونشرتي العاطفيّة الثابتة، وخبري العاجل الذي لا بدّ من أن أرويه ليهدأ ألمي.

وذات يوم، اتّصل بي نبيل إلى الكويت ليخبرني أنّ لديه مفاجأةً سارّة جدًّا لي، وأنّه ينتظرني في بيروت في أسرع وقتٍ ممكن

ليخبرني بالتفاصيل. وبعد أسبوعٍ على اتصاله، كان بانتظاري في مكتبه ليضع في يدي من حيث لا أتوقّع، عنوان سكنك، ورقم هاتفك، واسم زوجك، ومكان عملك.

أعترف بأنّها كانت أروع المفاجآت على الإطلاق... مفاجأة بحجم الشوق الذي أختزنه لك والندم الذي يعتصر قلبي لأجلك، فقد كان في جيبي فائضٌ من الحظ، وفائض من الأمل، وفائض من الشوق، وفائض من المعلومات التي أربكتني وحيّرتني، ووضعت أمامي خياراتٍ كثيرة لسيناريو لقائي بك بعد طول انقطاع.

سألت نفسي ألف مرّة كيف يمكنني أن ألتقيك دون أن تصدّيني، فيكون في تلك البداية نهايةٌ حاسمة وإجهاض لأيّ حلم بلقاءٍ جديد.

كنت أخاف أن ترفضي رؤيتي إن طلبتك بنفسي على الهاتف. فكّرت أن آتيك إلى العمل، ولكنّي خشيت ردّة فعلك أمام زملائك. حاولت أن أرسل إليك نصًا هاتفيًّا يدعوك إلى لقاء بيننا، ولكنّي لم أجرؤ مخافة أن تقع كلماتي في قبضة زوجك.

ولعلّ وجود زوجٍ في حياتك كان أشدّ الأخبار قسوةً عليّ.

لا أدري لمَ لم أتوقّع بعد كلّ تلك السنين أن تكوني رسمت إطارًا جديدًا لحياتك بعيدًا عنّي، وكأنّي نسيت أو تناسيت أنّي أنا من هشّمت في الماضي إطار حبّنا ومزّقت صورته البديعة. فلماذا ارتعدتُ إذًا عندما قرأت اسم زوجك؟ ألأنّك لم تعودي «نداي» أنا كما كنت قبل سنوات، وصرت «ندى» رجلٍ غيري، أم لأنّ جدار المستحيل ارتفع فجأةً أمامي وهدّد أملي بخيبة جديدة؟

رحت أبحث عن طريقةٍ أراك بها وجهًا لوجه، وعن لحظاتٍ تعيد إلى عينيّ انبهارهما السابق وإلى قلبي خفقانه الأجمل.

أعترف بأنّي كنت أرغب كثيرًا بأن أراك، وبأن أنظر في وجهك، لأرسم بريشتي خطوط الدهشة في عينيك، ولألمس حرارة الشوق الملتهب في وجنتيك.

وسأعترف لك الآن بأنّ لقائي بك اليوم لم يكن الأوّل كما ظننتِ، فلقد مرّ وقتٌ طويلٌ وأنا ألتقيك كلّ مساء دون أن تتنبهي لوجودي.

أيّامٌ وأنا أجلس في ذلك المقهى المقابل لبيتك، أنتظر أن تخرجي أو تدخلي، أنتظر أن تقفي على الشرفة، وكأنّك تستشعرين وجودي قريبًا منك. كنت ألمحك أحيانًا من بعيد فتنتفض الأشواق في قلبي، وأفكّر في سرّي متى سنلتقي.

لقد كنت أراك كلّ يوم دون أن أراك حقًّا. فلم يحدث قبل اليوم أن وقعت عيناك في قبضة عينيّ. ولم يحدث قبل اليوم أن أفقدك الحبّ وعيك بين يديّ. لقد كان ذلك أجمل ما حصل لي منذ وقتٍ طويل، وأجمل بكثير من المشهد الذي رسمتهُ في خاطري للقائنا الأوّل. فشكرًا للحبّ على تواطئه الجميل معي، وشكرًا لرقيّك وعذوبتك.

ندى...

على الرغم من أنّي لا أرى نهايةً قريبة لقصّتي معك، فأنا مضطرٌّ الآن لأن أجد خاتمة مناسبة أنهي بها رسالتي هذه، وألملم معها أطراف حكايتي المتعبة، وسأوقّع كلماتي الأخيرة إليك رغمًا عنّي، وأنسحب من أطراف حروفي إلى المكان الذي اختارته لي الحياة بقسوتها وخبثها، بعيدًا عن دائرة وجودك.

ومع أنّي أعلم تمامًا أنّه لا يجدر بي أن أخاطب امرأةً متزوّجة بهذا الاندفاع وبهذا المدّ العاطفي الهادر، ومع أنّي أعلم أيضًا أنّ كلّ اعترافاتي لن تغيّر شيئًا في خريطة الأقدار، ولن تعيدك إلى قلبي بعد اليوم، فأنا أشعر بحاجةٍ ملحّة إلى أن أقول لك ما قلت، وأبوح لك

بما شعرت، وأنا أدّعي أمام نفسي وأمامك أنّي ما زلت أمتلك بعض الحقّ في أن أطلب ممّن كانت يومًا خطيبتي وحبيبتي، شيئًا من الصفح والغفران.

فلتغفري يا ندى... ولتصفحي أرجوكِ... ولتعلمي أنّك ستبقين إلى الأبد خطيئتي ووجعي وحلمي الذي لن يبارح قلبي، والذي سيحيا في كل جوارحي ما دمت حيًّا...

شريكك في الذاكرة

ماجد

8

تهاوى قلبي حزنًا وسقطت منّي آخر العبرات التي كنت أظنّها جفّت تمامًا وإلى الأبد. شعرت بدوارٍ فظيع أرجحني في كلّ الاتجاهات، ثمّ علا بي إلى ما لا نهاية، ثمّ أسقطني في فخّ الكلمات التي كانت تختال أمامي بكلّ برود وقسوة.

أأنا في حلم؟ أم هو كابوس الأمس يعاودني متنكّرًا بلون الحبر وبعض السطور؟

لم أعد أذكر كم مرّةً قرأت رسالة ماجد تلك. ولعلّي قرأتها مرّةً واحدة فقط، كانت هي القاضية. هل جاء يطلب الصفح حقًّا كما حاول أن يقنعني مساء أمس؟ هل جاء يبتغي منّي العفو عند المقدرة؟ وهل كنت قادرةً على أن أمنحه صكًّا بالعفو عمّا ارتكب بحقّي؟ لست أدري. تباينت مشاعري، وتلاطمت، وتشاحنت، وحاصرتني بأعاصيرها.

لم أكن بكامل وعيي وأنا أجيب على الهاتف الذي تعب من كثرة الرنين. كان أحمد على الخط، وكنت أكثر من متعبة، فأجبته بنصف صوت وربع جملة.

– شو حياتي كنت نايمة؟

– إي حبيبي. بعدني تعبانة شوي...

– شو رأيك نروح سوا نشوف الدكتور، أحسن ما تتعبي بزيادة المسا؟

– لا، لا، مش ضروري. هلّأ بشرب شي سخن وباخد بانادول وان شاء الله المسا بصير أحسن. ما تعتل هم.

– طيّب حبيبتي. ما تتعّبي حالك. خلّيكي مرتاحة، وأنا بحاول ارجع اليوم بكير. بجبلك شي معي؟

– سلامتك حياتي. الله معك.

كان لا بدّ لأحمد من أن يتّصل في تلك اللحظة. ربّما كان يشعر بي في ظهر الغيب، ويقرأ أفكاري عن بعد، ويدرك أنّي أسبح في بحر الحيرة، ولا أجد سبيل الوصول إلى شاطئ النجاة.

جاء اتصاله ذاك ليوقظني من كابوسي المزعج، وليذكّرني من جديد بأنّه هو الحبّ الحقيقيّ الذي أعيشه كلّ يوم، وأنعم بالطمأنينة إلى جواره رغم كلّ شيء. فهل لا بدّ لي من أن أكذب عليه ثانيةً وأنا أمثّل دور المريضة النائمة التي استيقظت لتوّها على هاتف زوجها؟

ألا يجدر بزوجةٍ وفيّة أن تطلع زوجها على كلّ تفاصيل أيّامها، وكلّ مستجدات عواطفها، وتعلمه بأنّ خطيبها السابق قد عاد من جديد يطلب صفحها، وأنّها لا تدري حتى الآن إن كان سيل عواطفه سيتوقّف عند الصفح فقط، أم سيكسر كلّ السدود وسيقتحم قلبها ويطالبها بما هو أكثر من الصفح، وأقرب إلى الخيانة؟

ارتعدتُ فجأةً وانتفضت مذعورةً من تلك الفكرة السوداء التي بدأت تنهش أفكاري... ارتديت معطفي وخرجت، تقودني خطاي إلى اللامكان، بحثًا عن هواءٍ نقيّ يعيد توازن الأشياء في عقلي،

وينتزع من روحي كلّ براثن الضياع الذي بدأ يتوّهني ويقودني باتجاه مستنقعٍ لا مخرج لي منه.

رحت أسير على الرصيف المجاور، والهواء الخريفيّ يلفح وجهي، وأفكاري تسابقني الخطى.

هل أحدّث أحمد اليوم عن ماجد؟ هل أخبره بأنّه أرسل إليّ يطلب الصفح منّي؟ هل أستشيره في ما يجب عليّ فعله؟ ولكن، ماذا لو غضب منّي، ولم يتفهّم موقفي؟ ماذا لو أساء الظنّ بي ولم يصدّقني؟ ماذا لو شكّ للحظاتٍ في أنّي ألتقي ماجد منذ مدّة، أو أنّي على علاقةٍ به مثلًا؟

يا إلهي! لا أتخيّل نفسي موضع شكٍ لدى أحمد أبدًا!

قد أختلف معه كما يحدث أحيانًا كثيرة، وقد نتخاصم أيضًا كما يحدث لجميع الأزواج، ولكنّي لا أحتمل أن أكون محط شكّ بالنسبة إليه. فلماذا أشوّش أفكاره بهذه القصة وأقذف به في دوّامة الغيرة؟ فربّما ستنتهي الحكاية هنا، وسيرحل ماجد نهائيًّا، ولن أحتاج لأن أشرح لأحمد ما جرى.

تجاذبتني الأفكار والهواجس السوداء من هنا وهناك، فعدت إلى المنزل مرهقة، قبيل موعد وصول حسن من الحضانة.

لا أدري لماذا بكيت وأنا أضمّه إلى صدري. كنت أشعر بحاجةٍ لأن أسرد له كلّ ما يحدث لي منذ مساء أمس، لعلّي أخفّف عن قلبي وطأة الحمل الذي ينوء به.

بدأت سحب المغيب تزحف نحونا ببطء. وأنا جالسةٌ مع حسن قرب النافذة، ننتظر عودة والده. كان يحدّثني لا أدري عن ماذا، فيما كنت أنظر في وجهه وأفكّر في أمرٍ آخر.

ماذا لو كان حسن ابني من ماجد؟ كيف كان لملامحه أن تكون؟ هل كان سيشبهني إلى هذا الحدّ؟ هل كان سيحتفظ بلونه الأبيض الشفّاف وعينيه العسليّتين، أم كان سيرث سمرة ماجد، وسحر عينيه السوداوين؟

ماذا لو كان حسن ابننا نحن الاثنين؟ كيف كان لماجد أن يعامله؟ هل كان سيحظى بالحبّ والرعاية والأمان كما هي الحال اليوم، أم كان وجود إخوة له في الكويت، يشاركونه قلب والده واهتمامه سيقلّص حظوظه، فلا ينعم بما ينعم به في كنف أحمد من أمان؟

عاد أحمد عند المساء.

كان البرد يتزايد في الخارج شيئًا فشيئًا. عانقني بدفء عند الباب، فانساب قلبي ألمًا، ثمّ جلسنا نتناول طعام العشاء الذي أحضره معه، ونتحدّث في شؤون الزبائن والعمل. ولكنّ شعورًا غريبًا بالشجن انتابني فجأة. شعورٌ عنيفٌ ومؤلم لم أعرفه قبل اليوم.

كنت أنظر إلى وجه أحمد من حينٍ لآخر وأشعر بأنّ جانبًا ما من حبّي له قد أظلم فجأة، وأنّ عواطفي المذخورة له منذ سنين طويلة قد انهزمت وانكسرت قبل الأوان. إحساسٌ مبهمٌ قد لا تصفه الكلمات، ولا تصل إليه الحروف. وكأنّ ماجد استطاع من حيث يقصد أو لا يقصد، أن يتلاعب بمحرّك عواطفي، ويبطئ وتيرة شعوري بأحمد وتعلّقي به.

رحتُ أنظر في عينيه اللتين تذوبان حنانًا ودفئًا، أحدّق في الخطوط الصغيرة التي رسمها العمر حولهما، ثمّ أسرح في البعيد وأتخيّل ماجد جالسًا أمامي، يحدّثني.

لم أطل البقاء في الصالة ذلك المساء. تذرّعت بالمرض والإرهاق، وانسحبتُ فورًا إلى السرير حيث ضربت لي عينا ماجد

موعدًا.

وسرعان ما اجتاحني النوم وأثقل على جفوني بعدما كنت قد أمضيت الليلة الماضية يقظة، أُسامر الذكريات.

في اليوم التالي، كان لا بدّ لي من أن ألملم شتات أفكاري وعافيتي، لأستعيد تفاصيل حياتي اليوميّة. وكان لا بدّ لي من العودة إلى العمل لأنشغل قليلًا عن التفكير بماجد. ولقد نجحت في ذلك فعلًا، فطيلة فترة الدوام، لم تتوقف استفسارات المراجعين والزملاء، ولم يكلّ الهاتف عن الرنين حاملًا لي المزيد من التفاصيل المتعلقة بالعمل، ثمّ، بين الحين والآخر، كنت أعود وأغرق بأكوام الملفّات التي تنتظر دورها فوق الرفوف. ولكن، ما إن دلفت إلى مدخل البناية بعد انتهاء الدوام، حتّى أطلّ طيف ماجد من خلف الباب ليعانق حيرتي ويقودها في دروب كثيرة المتاهات والتعرّجات.

رحتُ أفكّر فيه. أين تراه الآن؟ هل ما زال في بيروت، ينتظرني، أم غادر إلى الكويت بعدما أنهى مهمّة اعترافاته الخطيرة لي؟

هل ما زال يأتي إلى المقهى المجاور لبيتي، أم تراه اكتفى بهذا القدر المتواضع من الاعتذار، ولن يعنيه إن كنتُ صدّقته أم لا؟ هل يهتمّ لما خلّفته عودته من دمارٍ شامل ألمّ بكلّ جزءٍ من أجزاء حياتي؟

كنت أتمنّى في قرارة نفسي أن يعود... أعترف بأنّي رغم كلّ الخوف الذي كان يسكنني ويؤرّقني، كنت أتمنّى أن أراه من جديد، ولوقتٍ أطول. فما كنتُ لأحتسب تلك اللحظات القليلة التي رأيته فيها أمس وأنا أهيم خارج العقل والوعي والشعور. كانت كلّ أجهزة جسدي قد تعطّلت حينها، لا شيء يعمل فيها سوى جهاز ذاكرتي.

وأنا أشعر الآن بأنّ لديّ الكثير الكثير لأقوله له، ولن تكفيني ساعاتٌ وساعات.

غضبت كثيرًا من ردة فعلي السخيفة، حينما فقدت الوعي بين ذراعيه في مدخل العمارة، لأنّها قلبت الموقف لغير مصلحتي، إذ ربّما جعلته يظنّ أنّي ما زلتُ أحبّه. وأنا، وإن كنتُ لا أزال أحبّه، أريد أن أثبت له عكس ذلك.

أريده أن يشعر بأنّي لم أعلن الحداد عليه يومًا، وأنّي لم أفتقده لحظةً واحدة. أريد فقط أن أثأر لنفسي، أن أقتصّ من ماجد، أن أقاصصه بقربي، وأن أعاقبه بوجودي في أحضان رجلٍ آخر.

لعلّي كنت أرغب في لاوعيي في أن أصفعه، دون أن أنبس ببنت شفة، أو لعلّي كنت أحلم أن أراه أمامي منكسرًا وضعيفًا يتوسّل إليّ لأعود إليه، فأردّ لقلبي اعتباره وكرامته. في الحقيقة، لست أدري، ولكنّي أرغب كثيرًا في رؤيته الآن. ولعل كلّ تلك الأسباب التي استعرضها عقلي أمامي ليست سوى ذرائع واهية، أستر بها شوقي إليه، وأداري بها رغبتي في أن أكون معه... للحظاتٍ فقط.

مرّ الأسبوع الأوّل. كنت قد بدأت أحسب الأيّام بروزنامةٍ خاصّة، بلا تواريخ قمريّة أو ميلاديّة، بل بتاريخ عودة ماجد في العاشر من نوفمبر 2012. مذ ذاك اليوم، بدأ التأريخ الجديد بالنسبة لي، وعليه أصبحت أقيس الأحداث: قبل عودة ماجد، وبعد عودة ماجد، وكأنّ تلك العودة هي الحدث التاريخيّ الأبرز في حياتي.

كان الشتاء قد بدأ يعصف ببيروت بعدما مازحها طيلة شهر أكتوبر ببعض الرذاذ الخفيف وبعض النسائم الباردة من وقتٍ لآخر. ولكن يبدو أنّه قرر العودة ما إن سمع بخبر ماجد، ولم يتردّد في مرافقته.

كنت أعيد قراءة رسالته يوميًّا وكأنّها دواءٌ ينبغي عليّ تناوله صباحًا ومساءً كي أتعافى، مع أنّي كنت أعلم تمامًا أنّ تلك الرسالة المحمومة عينها هي سبب ضعفي وسقمي وتوتّري. كنت أفتحها كلّ يوم ما إن أصل إلى المكتب، وأقرأها بتأنٍّ وكأنّي أراها للمرّة الأولى وأنتظر بين سطورها كلامًا جديدًا، ثمّ أخفيها جيّدًا في جيب حقيبة يدي السرّي، حتّى أعود إلى المنزل وأطالعها في المساء.

لا أدري إن كنت قد قضيت الوقت منذ ذلك اليوم بانتظار عودة ماجد، لأنّي كنت على يقين من أنّه سيعود، أم كنت أنتظر لأنّي كنت أرغب بأن يعود وأخشى ألّا يفعل.

لست أدري حقًّا!

ولكنّي كنت أبدّد معظم أوقاتي بين عقارب ساعات انتظاره.

حاولت أن أبحث عن طريقةٍ للعثور عليه، دون أن يكون في جعبتي ما أقوله له، ولم يكن أمامي سوى أن أتّصل برقم سوزي الذي خزّنته عندي، لحالة اتصالٍ طارئة، كما أقنعت نفسي بذلك.

قد يكون ذلك رقم سوزي الشخصي، أو رقم زوجها، ولمَ لا يكون رقم ماجد نفسه... فهل أضربه وأنتظر الصوت الذي سيجيبني؟ ولكن لم يكن ذلك ممكنًا بالنسبة إليّ، ولم أجرؤ على أن أرفع السمّاعة.

بعد مرور عدّة أيّامٍ على عودة ماجد، كنت قد بدأت أضيق ذرعًا بالانتظار، دون أيّ محاولةٍ حقيقيّة منّي لكسر جليده المحيط بي من كلّ الجهات.

كنت أذهب صباحًا إلى العمل، حيث تنتابني حالة فقدانٍ للذاكرة وسط وجوه الزملاء وقضايا المراجعين وزحمة الملفّات العالقة. ولكن، ما إن أعاود حياتي مع أسرتي، حتى يستحكم منّي الملل

والانتظار. كنتُ كثيرًا ما ألجأ إلى النوم باكرًا في تلك الأمسيات الباردة، أو إلى الصمت الطوعي في حضرة زوجي وابني، خلال سهراتنا الشتويّة الطويلة.

لا شيء كان يسكنني سوى هاجس رحيل ماجد عنّي إلى الأبد، الذي قد لا أجد له إلّا تفسيرًا واحدًا من اثنين، فإمّا أن يكون قد فرغ منّي كليًّا، ولم يحتفظ منّي سوى بشعوره العارم بالظلم الذي اقترفه بحقّي، والذي يسعى لأن أغفره له، أو هو يغالبه شعورٌ بالشهامة التي تفوق الحبّ، وترغمه على الانسحاب من حياتي بعدما أدرك أنّي قد تخلّصت من آثار وجوده تمامًا، وامتلأت بشخصٍ آخر، قد منحني اسمه وحياته، للأبد.

أصبحت حبلى بالقلق وبالملل، وحبلى بالانتظار الذي لا ألد غيره كلّ يوم. وأصبحت أرى جانبًا آخر في ارتباطي بأحمد، جانبًا يثير قلقي على علاقتنا، ويستلّ خنجر سخطي على نفسي ليطعنني به كلّ يوم.

لطالما كانت علاقتي بأحمد شديدة الترابط والدفء، على الرغم من الكثير من التباين في أفكارنا وآرائنا ونظرتنا للحياة وللكثير من الأمور.

كنا نتشاجر أحيانًا كأيّ اثنين يضيقان ذرعًا بوجودهما لوقتٍ طويل في الدائرة نفسها. وكنا نتمازج ونتلاصق كلّما ألمّت بنا خيبة، أو كلّما أجبرتنا الحياة على التسليم لها بجولة.

لم أشعر في يومٍ من الأيّام بأنّ شباك حبّي لأحمد قد تهتزّ مهما عصفت بها رياح الشجارات، ولم أشعر بأنّي قد أفقد بعض ذلك الحبّ فجأة، بلا أيّ مقدمات، ولحساب رجلٍ آخر أو ذكرى حبٍّ قديم.

حتّى ماجد... لم يخطر ببالي مذ تعرّفت إلى أحمد في دبي، ولم أفكّر يومًا بأنّي سألتقيه ثانيةً، وأنّه سيحرّك مجذاف أيّامي بعكس الاتجاه الذي ينبغي عليّ أن ألتزم به.

كنت امرأةً عاديّةً تمامًا، تعيش حياةً عاديّةً أيضًا ولا تحلم بغير الراحة والسكون في حضن أسرتها. وكنت أشعر بأنّ الله قد عوّضني عن الفقد الذي عشته طويلًا، وأهدى إليّ أجمل فرحتين في عمري، أحمد وحسن، بانتظار المزيد من تلك الأفراح.

لقد كنت أحبّ أحمد فعلًا، وما زلت أحبّه، لا شكّ لديّ في ذلك. كنت آوي إلى حضنه كلّما أضنَتني الحياة، وأنتظر عودته لأحيا معه مرحي، وجنوني، وإنسانيتي. ولكن، لماذا فترت مشاعري نحوه فجأةً ما إن عادت مياه ماجد تضخّ الأمل في قنوات أيّامي؟

لماذا بدأت أنبش في علاقتنا عمّا يكشف إهماله لي، ويجعلني أصدّق أنّه لم يعد يحبّني كما في السابق، ولم يعد يكترث بوجعي وفرحي كما كان قبل ذلك؟

فجأةً، صرت أبحث عن عيوب أحمد بالمجهر. أنتظر أن يتأخّر في العودة مساءً لأفتعل مشادّةً لا أساس لها، وأتّهمه بأنّه يبالغ في اهتمامه بعمله ولا يوليني أيّ رعايةٍ عاطفيّةٍ تُذكر. وكثيرًا ما صرت أثور وأغضب لمجرّد أنّه نسي ما طلبته منه، أو أنّه خلد إلى الفراش وتركني أسامر الملل، بعد يومٍ طويلٍ قضاه بعيدًا عنّي في العمل.

وفي النهاية، لم يكن كلّ ذلك جديدًا أو مستجدًّا. فوتيرة حياتنا لم تتغيّر منذ عودتنا إلى بيروت، ولم يخالف أحمد عاداتنا السابقة. ولكن، هو وهم شعوري المكثّف بالخوف من أن أضعف وأقع في شرك الماضي، وهو البحث عن مسوّغٍ مقنعٍ أمام نفسي إذا ما

سألتني عن سبب انتظاري لماجد، وعن الدافع وراء رغبتي في عودته.

أعترف بأنّي كنت أنتظر عودة ماجد بلهفةٍ يائسة، وأنّي حاولت كثيرًا أن أتصل برقم سوزي، ولكنّي كنت أقفل الخط قبل أن أكمل الأرقام الستّة.

ثمّ رحل نوفمبر حاملًا معه آخر آمالي بعودة ماجد.

كنت قد بدأت أعتاد الانتظار الذي لا نهاية له، ولذلك لم أعد أنتظر شيئًا.

كانت حياتي تتأرجح بين العمل والصمت والانتظار، وكنت أرغب كما كلّ النساء في تغييرٍ صغير يزيح الملل عنّي أو بتعديلٍ بسيط في مجرى يوميّاتي قد ينتزع الروتين منها. فلا أظنّ أنّ للنساء عدوًّا أبغض من الروتين اليومي. لذلك تراهنّ يبذخن الوقت على الظهور كلّ يومٍ بحلّة جديدة، وبشعرٍ مختلف، ثمّ ينتقلن إلى المنزل فيبدّلن الأثاث من وقتٍ لآخر، ويضعن لمساتهنّ ليبدو التغيير واضحًا في عيونهنّ. وأنا امرأةٌ لا تختلف عن باقي النساء إلّا ببعض التفاصيل الخاصّة والمختلفة هنا وهناك. ولعلّ ماجد كان أهمّ تلك التفاصيل وأبرزها على الإطلاق.

وفي صبيحة يومٍ عاصف، فتحت سارة، سكرتيرة الشركة، باب مكتبي وفي يديها باقة وردٍ أحمر، وعلى شفتيها ابتسامة فضول وحسد.

كان السابع من ديسمبر، يوم عيد مولدي. وكنت قد تلقّيت في الصباح الباكر معايدةً شفهيّة، وقبلةً خاصّة من أحمد في هذه المناسبة، ولا أظنّني كنت أنتظر مفاجأةً منه أبدًا. وضعت سارة

الباقة أمامي على الطاولة، ولم تنتظر لأخبرها من المرسل، بعدما ظنّت أنْ لا أحد سيحتفل بي في يوم مولدي سوى زوجي.

– مبروك... مبروك... يا عمي نيّالك، في حدا متذكّرك عالقليلة، نحنا يا حسرة ما حدا بيسأل فينا ولا بيعبّرنا.

شكرتها كثيرًا ودعوتُ لها بباقة أجمل وأكبر، وأنا أفتح البطاقة المقفلة داخل ظرفٍ صغير.

كنت أتلقّى أحيانًا كثيرة هدايا وورودًا من أحمد في معظم المناسبات السعيدة في حياتنا، ولكن لم يحدث مرّةً أن أرسل إليّ باقة وردٍ إلى مكتبي. فهل سيبدأ بتغيير عاداته اليوم بعدما بدأ التذمّر يثقل على علاقتنا في الأيّام الأخيرة؟

كانت البطاقة صغيرةً جدًّا، تتّسع لجملةٍ واحدة، كُتبت بخطٍ أعرفه تمامًا وأكاد أقرأه كلّ يوم.

«كلّ عامٍ وأنت حبّي الضائع، ووجعي الذي لن أشفى منه أبدًا...».

ارتجفت أناملي وهي تمسك بتلك الكلمات وتدحرجت على خدّي دمعةٌ حائرة.

وعلى قدر رغبتي في عودة ماجد ولقائه من جديد، ارتعبت من تلك الرغبة، ومن احتمال تنفيذها. فقد كان واضحًا من كلماته في بطاقة المعايدة أنّه تخطّى موضوع الصفح، وأنّه قد عاد يبحث عن «نداه»، لا عن غفرانها، وأنّه إذا ما انقاد قلبي خلف وهم كلماته المعسولة، فلا أحد يدري إلامَ سيكون مصيري، وأين سترسو بي سفينة التجاذبات النفسيّة.

كنت أتمزّق بين شعورين مدوّيين، شوقي لأن أجدّد مشاعري نحو ماجد وأعيش معه قصّةً مستجدّة من باب الفضول، بعدما

تأكّدت من أنّي قد نسيت حقدي عليه، ولم يعد في قلبي متّسع إلّا للحبّ، وبين شعوري القاتل بأنّي قد أتحوّل لامرأةٍ أخرى تستهين بكرامة زوجها الذي يحبّها ويأتمنها على قلبه وحياته وسمعته، فأبدّد كلّ ثروته تلك في فضاء الخيانة الرحب، وإن تحت مسمَّياتٍ منمّقة ومعدّلة. وأنا لم أكن يومًا تلك المرأة المتلوّنة التي قد تختبر مشاعر متداخلة في لحظة واحدة، أو قد ينبض قلبها لرجلين في وقتٍ واحد.

كنت كثيرًا ما أناقش مع صديقاتي ومع أحمد أحيانًا الاختلاف الفطري بين المرأة والرجل، وقدرة الرجال عامّةً على حبّ أكثر من امرأة في الوقت نفسه. كنت مقتنعةً بذلك، وعلى الرغم من كلّ محاولات أحمد لتغيير وجهة نظري، لم أقتنع بعكس ذلك. فقد كنت أؤمن بأنّ قلب الرجل قد يتّسع لنساء كثيرات، يخصّص لكلّ واحدةٍ منهنّ مقدارًا من الحبّ يناسب حاجته هو، ولكنْ يصوغه بطريقةٍ مختلفة تتناسب مع رغبتها هي.

أمّا المرأة، فقد كنت أؤمن بأنّها لا تحتاج لأكثر من رجل يملأ حياتها دفئًا وولعًا. فقلبها وحدةٌ لا تتجزّأ أبدًا، ولا يمكنها أن توزّع عواطفها على رجلين أو أن تعيش شعورًا واحدًا مع شخصين مختلفين.

ولكن، يبدو أنّني كنت مخطئة، ويبدو أنّني سأبدأ منذ اليوم بإعادة النظر في قناعاتي. فقد اكتشفتُ بالصدفة أنّني أعيش ربّما بقلبٍ أقرب إلى قلب رجل، إذ لم أسمع قبلي بامرأةٍ أحبّت رجلين معًا ورغبت بهما في الوقت نفسه. فهل يكون قلبي شاذًّا في تركيبته، أم اختلط عليّ الواقع واشتبهت عليّ مشاعري.

عدتُ في المساء، أحمل باقة الورد في حضني، ولا أدري حقًّا ما الذي دفعني لأن أحملها معي إلى المنزل؟ هل كنت أرغب في مطالعة وجه ماجد من خلالها، أم خفتُ عليها من أن تذبل في اليومين التاليين اللذين كانا إجازة نهاية الأسبوع؟ وضعت الباقة بسرعة في فازة الورد التي كانت تنتظر فوق الطاولة، فارغة. رتّبتها باهتمام متقن، وجلست أتأمّلها.

عاد أحمد في المساء، كنت أنتظر عودته لأقارن باقة ماجد مع باقته هو، ولكنّه لم يحضر لي معه أيّ باقة، بل كان يحمل قالب حلوى، وزجاجة عطرٍ فرنسيٍّ فاخر.

عاجلني بالسؤال عن الورود. لفَته لونها الأحمر الدافئ، وابتهاجها الذي ينطوي على ألف معنى وألف مغزى.

ولأنّني امرأةٌ بقلبين فلا بدّ من أن أكون بلسانين أيضًا، لسانٍ يصدق في كلّ ما يقول، ولا يكذب طرفة عين، ولسانٍ آخر أكثر دهاءً، يُستخدَم في الحالات الحرجة، والأوقات الصعبة. وكان هو من نطق يومها ليجيب عن سؤال أحمد عن صاحب الذوق الرفيع الذي حمل إليّ تلك الورود:

– أرأيت؟ كانت مفاجأة الصبايا لي هذا الصباح في المكتب. وردٌ وحلوى والكثير من التمنّيات الجميلة.

شعرت بأنّه لم يصدّقني. كان يتلمّس الباقة بيديه وكأنّه يبحث عن خيطٍ يربطه بفكرةٍ لاحت في رأسه، أو عن بطاقةٍ نسائيّةٍ تدفع عنّي الشكوك، ولكنّه لم يعثر على شيء.

تلك الليلة، احتفل بي أحمد، بمهرجانٍ حافل بالعواطف والرومنسيّة، ولكن على طريقته الذكوريّة، وسط الشموع الحمراء التي ملأت المنزل وصوت الجاز الذي كان يهمس في أذنينا بعذوبة.

لم يكن أحمد شخصًا رومنسيًّا من الطراز الرفيع، ولكنّه كان يولي مزاجًا خاصًّا للسهرات الاحتفاليّة. كنت أسعد بطريقة مغازلته لي، وتحبّبه إليّ. وكنت كثيرًا ما أحبّ انسجام جسدينا معًا، وتطابق ذوقينا في الحبّ، وهو ما جعلني أشعر بأنّ التوافق والاستقرار اللذين ننعم بهما في حياتنا مردّهما إلى تلك الكيمياء الجسديّة التي كانت تسكبنا الواحد في الآخر وتمزج بين روحينا.

إلّا أنّني بدأت أخشى فعلًا من أن أفقد تلك السعادة معه، وخصوصًا بعدما بدأ الفتور والتململ يثقلان عليّ كلّما اختلى بنا الحبّ بين طرفي سرير. لم أكن أريد أن أجرح أحمد في كبرياء رجولته وأنا أرفض اقترابه منّي، ولم أرده أن يشعر بأنّ شيئًا قد اختلف أو أنّ شخصًا آخر يشغل بالي ويستعمر كلّ تفكيري. كان لا بدّ من أن أجاري شهيّته المفتوحة لي دائمًا، وأحافظ على رغبتي طازجةً في حضرة جسده.

في صبيحة يوم الاثنين الذي تلى عيد مولدي، رنّ جوّالي ،فيما كنت أجلس بين كومة من الأوراق والأختام داخل مكتبي. كان رقماً مجهولاً من نوع « Private number»، وكان يحمل إليّ صوت ماجد على أوتار خافتة. هوى قلبي منّي في لحظة واحدة، وتناثرت معه نصف حبالي الصوتيّة.

– ندى...

ثمّ صمت لحظة.

– نعم... مين؟

قلتها باستغراب، وكأنّي لا أعلم أنّ ذلك الصوت، وتلك النغمة التي ترافق اسمي، لا يصدران إلّا عن ماجد وحده.

– ولهت عليج...

هل كان لا بدّ له من أن يبدأ بهذه العبارة التي كانت علامته الفارقة، والتي لن أقوى يومًا على مقاومتها؟ فقد كانت تذيبني عشقًا وتوقظ فيّ كلّ أشواق السنين الماضية.

– أهذا أنت؟

– كيف حالك يا ندى؟

وكأنّه كان ينتظر أن أقول له إنّني أصبحت بخير حال سماعي صوته.

– بخير، الحمد لله. أردت أن أشكرك على الورد. كانت لفتةً لطيفة منك.

– فديتج. كلّ سنة وانت سالمة. أنا...

قاطعته وأنا أحاول أن أبعد عن عينيّ شبح ندى التي كانت تنتظر هاتف ماجد، وأستعيض عنها بصورة ندى زوجة أحمد، لكي أتمكّن من الصمود أمام شوقي وضعفي.

– ماجد، أرجوك... هل لي أن أسألك أمرًا؟

– آمري.

– أرجوك... هلاّ أعتقت حياتي، وأخليت سبيلي؟

– ندى، صدّقيني. أنا لا أقصد أن أزعجك. ولكنّي أتّصل لأنّي أرغب في أن أتلقى جوابًا على رسالتي.

– وهل كان يجب عليّ أن أرسل لك ردًّا؟

– لا، أبدًا. ولكن يعنيني كثيرًا أن تكوني قد قرأت سطوري، وغفرت لي ما اقترفت بحقّك.

– هل سنعود من جديد لحكاية الغفران هذه؟ ماجد، يجب أن تعلم بأنّك أصبحت بالنسبة إليّ ماضيًا انتهت فصوله منذ وقتٍ طويل، ولم أعد أتذكّره.

– حقًّا؟! حتى وإن كان صحيحًا ما تقولين، فأنا لم أنسكِ يومًا، ولا أظنّني سأفعل.

– ماجد، لعلّك تدرك أنّني سيّدة متزوّجة ولديّ عائلتي التي أحبّها، ولا أريد أن أخسرها بسبب ماضٍ بعيد. كفاني ما ألمّ بي من خسارات سابقة.

– يا بنت الناس، ثقي تمامًا بأنّي لن أتسبّب بمكروه لكِ ولا لعائلتك. صدّقيني، كلّ ما أريده منك هو أن تمنحيني فرصةً لأكون حاضرًا في عالمك، أشاركك فرحك، وأشعر بألمك وإن من بعيد.

– ماجد، ألا تلاحظ أنّك تطلب منّي ما ليس من حقّي ولا من حقّك؟

– ندى، أرجوكِ لا تبالغي، أنا لا أطلب منك المستحيل. ولن أسألك ما يفوق طاقتك، كلّ ما أريده هو أن تسمحي لي بأن أتّصل بك من وقتٍ لآخر لأطمئنّ إلى أحوالك.

– لست أدري حقًّا بما أجيبك. لست واثقةً بأنّي سأستطيع، ولن أعدك بأيّ شيء، فلنترك هذا الأمر للظروف ولنرَ...

– حسنًا، وأنا موافق على ذلك. شكرًا ندى، أنا شاكرٌ لكِ، وأعوّل كثيرًا على الأيّام. اهتمّي بنفسك... في أمان الله...

رحل صوت ماجد، ورحل قلبي معه.

وضعت الجوّال على الطاولة وأنا لا أذكر ماذا قلت له، وكيف امتشقت حسام كلماتي ودافعت بها عن قلبي. ولكنّي كنت أعلم تمامًا أنّه لم يعد لأجل الغفران، وأنّه لن ينجح في أن يؤدّي معي دور الصديق المجرّد من عواطفه. أليس هو من قال لي يومًا إنّنا لا نصلح لأن نكون مجرّد صديقين، وإنّنا لن ننجح أبدًا في خداع أنفسنا

وتمثيل دور الأصدقاء أمامها، لأنّ ما كان بيننا من مشاعر لا يندرج سوى في خانة الحبّ وحده؟

وها أنا اليوم أوافقه الرأي تمامًا. فأنا أيضًا لا أؤمن بحبٍّ خلع يومًا زيّ الغرام وارتدى ثوبًا آخر يُدعى الصداقة، ولن أصدّق أنّ قلبًا كان يفيض عشقًا قد يجفّ كلّيًا، دون أن ترشح منه يومًا نقطة حبٍّ واحدة. وها هو ماجد يعود اليوم لأنّ قلبه يرشح حبًّا بل ويفيض حنينًا، فكيف سأصدّق أنّه سيكتفي بأن يهاتفني كصديق وينسج معي حديثًا خاليًا من كلّ أنفاس الحبّ بعدما كادت نبرته اليوم أن تتعثّر حبًّا وتتلعثم اشتياقًا؟

وبقدر ما أسعدني هاتفه، أرعبتني نواياه.

ها هو... قد اتّصل كما كنت أريد، وأسمعني ما كنت أريد سماعه. فهل سيكتفي غروري بذلك، وهل سترضى كرامتي أخيرًا، أم ستجرّني خلفها إلى ما هو أخطر بعد؟

فما معنى أن يطلب رجلٌ من امرأة متزوّجة أن تسمح له بأن يكون في عالمها؟ هل يعني ذلك أنّه سيتّصل بي كما يتّصل أيّ صديق آخر ليسأل عن أحوال أحمد والعائلة، وعن صحّة حسن، وعن مشروع عطلة نهاية الأسبوع، وعن سوق العمل، و... ؟ أم لماجد مواضيع أخرى يريد الاطمئنان عليها لا علاقة لها بشيءٍ سواي؟

فأنا وحدي محطّ اهتمامه، ومحور سؤاله، ومهبط عواطفه. وعليّ أن أكون كثيرة الوضوح مع نفسي لأحدّد لها ما يمكنها القبول به، وما يجب عليها رفضه، وبشدة.

أعترف بأنّ هاتف ماجد كان أقوى منّي، ومن صمودي، أنا التي ظننت أنّني تغلّبت على ضعفي عبر السنين، وأنّني لم أعد تلك

الصبيّة الرقيقة التي يبكيها أيّ شيء، ويستدرّ حزنها أيّ شيء.

ها أنا اليوم أكتشف أنّني قد لا أكون صلبةً بما يكفي لأصمد أمام زوابع ماجد القادمة. فماذا لو كان يناور؟ ماذا لو كان ينوي أن يستدرجني إلى منطقة حبّه من جديد لأغرق في رمال قلبه المتحرّكة؟ ماذا سأفعل؟ هل أنصاع لرغباتي ورغباته؟ هل أرحّب بفكرة وجوده في حياتي، أم أتسلّح بما أملك من عزيمةٍ وإيمانٍ وحبٍّ أكنّه لزوجي، وأتصدّى لهذه الغارة العشقيّة الغادرة؟

رحتُ أفكّر في سيناريوهات متعدّدة قد يقدم ماجد يومًا على تنفيذها، وقد تبقى مشاريع مستقبليّة معلّقة في ذهنه لا أكثر. صرت أتخيّل ردّة فعلي إذا ما اتّصل بي يومًا ليدعوني إلى فنجان قهوةٍ بحريّ؟ أو إذا ما قرّر أن يهدي إليّ زيارةً مباغتة أخرى في مدخل العمارة أو أمام باب المكتب؟

وكأنّ ماجد كان يحيا في مخيّلتي ويطّلع سرًا على كلّ أفكاري ليكون هو المارد الذي سيحقّق لي أمنياتي. فبعد أيّامٍ قليلة على اتصاله ذاك، فاجأني هاتفه ذات صباح من الكويت وعبر الرقم الخاص نفسه. اطمئنَّ إليّ وحدّثني بطريقة عفويّة عن عائلته وأبنائه، ثمّ أخبرني بأنّه قادمٌ إلى بيروت في إجازة رأس السنة.

ها هو الخطر قد بدأ يزحف نحوي على عجل دون أيّ إنذارٍ مسبق. فهل سآخذ باحتياطات السلامة وأتوخّى الحيطة والحذر؟

كان لبنان قد استسلم قبيل عيد الميلاد لموجة بردٍ وثلجٍ غطّت جزءًا كبيرًا منه، وتركت بيروت ترزح تحت الأمطار الكثيفة.

أمضيت مع أحمد وحسن سهرة رأس السنة بين الأهل والأصحاب، في بيت خالتي ليلى. كان الجميع هناك، في أمسيةٍ استثنائيّةٍ دافئة.

كنت كثيرًا ما أحبّ هذه السهرات التي تجمع كلّ الذين أحبّهم وأرغب في رؤيتهم دون أن يسمح لي الوقت بذلك دائمًا. اجتمعنا يومها حول الأطباق التقليديّة التي يبدو أنّها إلزامية في تلك المناسبات السنويّة. كانوا يتشاركون جميعًا في سرد النكات الجريئة، وتقاذف الأخبار المضحكة، والألعاب، وكلّ ما قد يعيد لنا إحساسنا بالمرح ورغبتنا في أن نقهقه بأعلى أصواتنا تحدّيًا لهذا الزمن الصعب.

شاركت الجميع بهجتهم تلك الليلة، دون أن يشاركني أحدٌ منهم رحلتي داخل عالمي الخاص. كنت أجلس معهم، وأستمع إليهم وأضحك لهم وأنا أفكّر من حينٍ لآخر بماجد. هل أتى إلى لبنان كما أخبرني منذ أيّام، أم عدل عن رأيه نظرًا للأحوال الجويّة المتردّية؟

وعند الثانية عشرة ليلًا بتوقيت الأول من كانون الثاني 2013، كانت شاشة هاتفي الذكي تستقبل أول رسالة أتلقّاها في هذا العام، بفرحٍ كبير. وكانت حتمًا من ماجد.

فتحت بريد رسائلي بسرعة، وأنا أحاول أن أختلي بنفسي بعيدًا عن وجوه الحاضرين الذين يطارد بعضهم بعضًا بالقبل والتهاني والأمنيات، وجلست في الغرفة المجاورة أقرأ الرسالة.

«لا معنى للعيد إن لم تكوني بهجته. كلّ عام وأنت فرح أيّامي...».

كيف لي أن أخرس نبض قلبي الذي كان يعدو في صدري حصانًا جامحًا، وأنا أقرأ الرسالة؟ وكيف لي أن لا أتوه في غابات كلماته. آه يا ماجد، لو أنّك تعلم ماذا تفعل بي رسائلك، وكيف تحوّلني حروفك فجأةً إلى مراهقةٍ صغيرة تنتظر إشارةً من حبيبها.

مع بداية العام الجديد، كانت حياتي قد بدأت تأخذ بعدًا جديدًا، يحتلّ ماجد الحيّز الأكبر فيه. أصبحت أفكاري أكثر تشوّشًا واضطرابًا. كنتُ قد بدأت أفقد شهيّتي على الطعام دون سبب، حتى إنّي خسرت شيئًا من وزني. وصرت أفكّر في ماجد ليل نهار، بعدما أصبح يمطرني بالرسائل والهواتف، ويلهيني حتى عن إنجاز عملي.

كنت ما إن أدخل إلى مكتبي في الصباح حتى يعلن هاتفي تسلّم رسالته. وتبدأ الجمل تتوالى على بريدي حتى يزدحم فجأةً باسمه. عاد اشتياقه لي يحتلّ المرتبة الأولى في عناوين الرسائل، ثمّ أخبارٌ عاديّة وتحرّكات يوميّة يسردها على مرأى من جوّالي بانتظار أن أجيب. لعلّه كان يحاول بذلك أن يستدرجني لأعلن اشتياقي إليه رسميًّا، أو لأصرّح بأنّني ما زلت أنتظره وأرغب في أن أكون معه، إلّا أنني كنت لا أزال أقاوم.

كنت أعلم تمامًا أنّني ما إن أصرّح باشتياقي له ورغبتي برؤيته، حتى أكون قد أصدرتُ حكمًا على نفسي بالخيانة المؤبّدة، وعلى علاقتي بأحمد بالشلل التام، لأنّني كنت على يقين من أنّ ماجد لن يتوقّف هنا، وأنّ مجرّد اعتراف بسيط بأيّ نوعٍ من العواطف تجاهه، سيكسر السدّ المنيع الذي كنت أحصّن به نفسي، وسأنجرف في سيل الوحول التي بدأت تتراكم تحتي مذ وقّعت وثيقة غفرانه.

ولكن، لم يكن أمامي الكثير من الحلول. فالمشهد لا يحتمل إلّا صورةً واحدة من ثلاث صورٍ اقترحها الواقع عليّ. فإمّا أن يرحل ماجد عنّي للأبد وأعود بسلامٍ لعائلتي، وإمّا أن أعود إليه هو بعد أن أتخلىّ عن أحمد وحسن، وإمّا أن أحتفظ بالجميع في سلّةٍ واحدة، وأرضى بأن أحمل لقب الزوجة الخائنة في قلبي وفوق جبيني.

ولكن... أما من خيارٍ أقلّ قسوةً من كلّ ذلك؟ فأنا لا أحتمل فكرة الانفصال عن أحمد، حتى وإن كنتُ سأحتفظ بحسن. أنا أحبّ أحمد، أحبّه بصدق... ولن أكون بخير إن لم أكن جزءً من عالمه.

أما ماجد، فلقد كان صعبًا أن أنفيه من حياتي بهذه السرعة. كنت أحتاج إلى وجوده. كان هو تلك الشرارة التي تشعل أنوثتي، وتوقظ فيّ غروري النسائي وإحساسي بقدرتي على الاحتفاظ بقلب رجل رغم تسع سنوات من البعد والفراق. وكان هو أيضًا تلك الفانتازيا التي كنت أرغب في إضافتها إلى حياتي، لأعيش بها نمطًا عاطفيًّا مختلفًا، ومشاعر طازجة كنت أستمتع بتذوّقها كلّ يوم. فهل كان قرار إبعاده بهذه السهولة؟

لعلّي تجاوبت أكثر مع فكرة احتفاظي بكليهما معًا، أحمد وماجد، خصوصًا أنّني أقنعت نفسي في لحظة جنونٍ شيطاني بأنّني لم ولن أقارب الخطأ أو الخطيئة، ما دمت لا ألتقي ماجد أبدًا، وبأنّه لن يكون بيننا أيّ اتصالٍ جسديّ.

ولكن... هل التواصل الجسدي بين المرأة المتزوّجة وغير زوجها هو اختصار خيانتها؟ سألت نفسي مرّاتٍ كثيرةً عن تعريف الخيانة. كنت أرغب في أن أجد إجابةً شاملة عن تساؤلي: هل تتساوى امرأةٌ تهب جسدها لغير زوجها، وأخرى تهب له قلبها وعقلها فقط؟

كنت أؤمن بأنّ الجسد ليس بالضرورة أغلى ما تملكه المرأة، وليس وحده المقياس الحقيقيّ للشرف أو الخيانة، بل ثمّة ما هو أغلى وأثمن. ثمّة مشاعر لا ينبغي أن تكون إلّا من حقّ الزوج وحده، وثمّة كلام ونظراتٌ وابتساماتٌ وأشياء أخرى كثيرة لا يجوز أن يشاركه فيها أحد، وثمّة عواطف أيضًا هي أثمن من الجسد، وخطورة تسليمها لرجلٍ آخر قد تفوق جريمة التفريط بالجسد.

والغريب في علاقتي بماجد أنّها كانت تخالف كلّ قناعاتي تلك على نحوٍ كبير، وتتجاوز مبادئي نحو الضفّة الأخرى.

كنت مقتنعة بأنّ محتوى الرسائل التي كنت أتلقّاها من ماجد بطيب خاطر كان يتخطّى الصح والخطأ، ويتعدّاه إلى ما هو تفريط بالأمانة التي أودعها أحمد في قلبي منذ ارتباطنا، واغتصاب لحقوقه التي لم يخطر بباله يومًا، ولا ببالي أنا أيضًا، أنّني قد أستبيحها في يومٍ من الأيّام. ولكن يبدو أنّني كنت أستسيغ تلك اللعبة التي لا تخلو من الإثارة، وأستسلم شيئًا فشيئًا للضعف الذي قد بدأ يتسلّل إليّ، مستدرجًا إيّاي للخضوع لرغبتي دون أيّ خوفٍ ممّا يمكن أن يحدث لي لو اكتشف أحمد عن طريق الخطأ إحدى تلك الرسائل المحمومة التي أتلقّاها من ماجد.

استمرّت العلاقة الهاتفيّة ما بيننا شهرين كاملين. قال لي فيهما كلّ ما يمكن أن يقال، وكلّ ما لا يجوز أن يُقال. كنت أتأرجح بين رغبتي في لقائه، وخوفي من الآتي، واكتفائي بأشواقه الهاتفيّة تعويضًا عن حضوره في حياتي. لكن، وإن بدا لي صمودي ممكنًا فإنّ صموده هو كان محالًا. ولم تتمكّن وجبة الرسائل الهاتفيّة من أن تسدّ جوع قلبه.

فحدث ما توقّعت.

اتصل بي في أحد صباحات آذار، ليقول لي إنّه في بيروت لأيّامٍ قليلة، وإنّه يرغب في رؤيتي وإن لدقائق فقط، قبل عودته إلى الكويت.

حاولت جهدي أن أتصدّى لرعونة طلبه، وأن أبعد عنّي وساوس شياطينه، ولكن وجدتني أكثر رعونةً منه، واستسلمت لذلك

الصوت الداخليّ الذي كان يهمس لي بأن أذهب، وأن أستمتع بصحبته.

ذهبت إليه وأنا أحاول أن أحوط نفسي بالكثير من سترات النجاة، في تلك الرحلة التي كانت الأخطر في حياتي على الإطلاق. كنّا قد اتفقنا على لقاءٍ خاطف في مكانٍ عامّ.

في الطريق، عاودتني صورتي عندما ذهبت لألتقيه أوّل مرّة في «باي روك»، كم كنت بريئةً حينها، وكم اختلفت عليّ ندى منذ ذلك اليوم!

ها أنا ذي الآن امرأةٌ في الثانية والثلاثين، أحمل في جسدي الصغير قلبًا بوجهين، لرجلين اثنين، قلبًا متعبًا، يُرشق من حيث لا يدري بكرات المشاعر المتناقضة.

ها هي ذي ندى العاشقة، تسرع نحو رجلٍ عائد من زمن الحبّ، يرسم لها طريقها فوق حبال عينيه، ويدفعها بحرارة أشواقه نحو قعر الهاوية.

أفقتُ من خواطري المتشابكة على ابتسامة عينيه.

كان ينتظرني بلهفةٍ أغرقت وجهه بسحبٍ من الفرح والبهجة. ما إن وصلتُ إليه حتى وقف من مكانه ليصافحني بدفء، فاستشعرت حرارة قلبه في يدي، وتعالت في داخلي أصوات الذكريات.

اكتشفتُ يومها أنّه لم يكن في الوجود ما هو أجمل من عيني ماجد. واستغربت أن أكون نسيتهما في يومٍ من الأيّام. كانت خطوط الشيب قد بدأت تزحف على شعره الأسود الكثيف، فيما راحت لحيته الخفيفة ترسم الكثير من الوقار على ملامحه التي نضجت كثيرًا، وازدادت وسامةً وسحرًا.

ها أنا ذي أمام رجلٍ في بداية الأربعين، تتزاحم على وجهه السنون فيدحرها، وتنازعه الأيّام على شبابه فلا يعبأ بها، لتبقى ابتسامة ثغره هي نفسها، كما كانت قبل تسعة أعوام، بكلّ دفئها وحيويّتها، تشير إلى قائمة خساراتي، وتستعرض أمام عينيّ ما قد فاتني من عمر.

جلست مقابل أشواقه وكلّ شيءٍ فيّ يرتجف. لم تكن لديّ رغبة في الحديث أبدًا. كان الصمت يُنطق نظراتنا، ويقطع الطريق على أيّ كلام وعلى كلّ محاولات التبرير والعتب.

كنت مضطربة ومتردّدة، كمن يجلس فوق قنبلةٍ موقوتة. فأنا أخشى البقاء معه، وأخشى الرحيل عنه أيضًا، وتتقاذفني أمواج الحبّ والرعب والشوق والرغبات الثائرة في آن معًا، ولا أجد سبيلًا للهروب.

امتدّ عمر لقائنا ذاك ليتجاوز الساعة تقريبًا، مع أنّني شعرت بأنّني لم أبقَ معه أكثر من خمس دقائق، وأنّه كان يلزمني عمر آخر أُنفقه لديه. لعلّنا تحدّثنا أو تهامسنا. لعلّنا ضحكنا أو ربّما بكينا. ولكننا حتمًا صمتنا، وحتمًا رغبنا. وفي النهاية تفارقنا.

لا أذكر عن ماذا حدّثني يومها، ولا أظنّه يذكر أيضًا، ولكنّني كنت أقرأ في عينيه معلّقاتٍ عشقيّة لا نهاية لها.

أردتُ أن أسأله سؤالًا واحدًا: لماذا بكى ليلة التقاني في مدخل البناية أوّل مرّة؟ ولكنّي لم أجد الكلمات. أما هو، فلم يحاول أن يغوص في محيط قصّتنا. كان يخشى من تيّارات الألم والعتاب التي ستجرفنا إلى مكانٍ قد لا يرغب هو في الذهاب إليه، فالتزم الصمت الفصيح.

أذكر جيّدًا كيف وقف بقربي قبيل مغادرتي وكيف سكب في عينيّ كلّ ينابيع حبّه، ثمّ أمسك بيدي واحتضنها لثوانٍ بين يديه قبل أن يقبّلها، وكأنّه يتلو عليها ترتيلةً خاصّة وهو يقول لي: «في أمان الله».

فارقته والحزن يدثّرني بمعطفه. وركبت سيّارتي وأنا عاجزةٌ عن القيادة. تدافعت الدموع على وجهي كمطرٍ تخزّن في أعماقي طيلة السنوات الماضية، وانهمر فجأةً، في لحظةٍ واحدة.

ثمّ اتّصل بي من جديد وأنا في طريق العودة. كنت أهيم في بحرٍ من البكاء والنحيب، ومع ذلك أجبت على اتّصاله لأنّني كنت بحاجةٍ لأن يحدّثني مرّة أخرى، وليرافقني صوته في مشواري الطويل:

– ندى، سامحيني، لازم أقللج إني أحبج، وإنك لي لو آخر يوم بعمري.

أقفلت الخط عند هذه الكلمة لأنّني لم أكن أملك تعليقًا مناسبًا على كلامه. يكفيني ما قد ألمّ بي. كنت أترنّح وسط مشاعري ولا أدري ما الذي يعذّبني أكثر: خسارتي لماجد وحبّه الذي ضاع من أمام ناظريّ، أم خوفي من علاقةٍ أعلم تمامًا بدايتها ولكن لا أدري عن مصيرها شيئًا، أم أسفي على ما لحق بأحمد بعد هذا اللقاء، وهو المطمئِنٌّ لوفاء زوجته؟

أوقفت السيّارة على جانب الطريق ورحت أفكّر في ما حدث، وأحاول أن أقيّم الموقف.

ها أنا ذي قد التقيت ماجد أخيرًا، واختبرت قدرتي على الصمود أمامه. فهل كانت تجربةً موفّقة؟ وهل نجحت في الاختبار؟ هل كان لا بدّ من أن ألمس النار بيديّ لأتأكّد من أنّها ما زالت مشتعلة، وما زالت قادرةً على أن تصيبني بشراراتها؟

ها أنا ذي قد اختبرت نفسي، واكتشفت مع الأسف أنّني لم أذاكر درس النسيان جيّدًا، ولم أتمرّن على التطبيق العملي لنظريات السقوط الحرّ، فسقطت من جديد في شرك الماضي.

انتهت أخيرًا دروب الهوى، ووصلتُ إلى حيث يجب أن أكون دائمًا. إلى المنزل الذي يحمل اسم أحمد لا ماجد، ويعرف خطو أحمد، ويحفظ همسه وضحكته، إلى المكان الذي شهد أجمل سنوات حياتنا معًا، واحتوى كلّ لحظات أيّامنا بحلوها ومرّها.

لملمت أنفاسي المتعبة عند عتبة البيت، ودخلت. كان أحمد لا يزال في عمله، وحسن يجالس التلفاز ومعه مدبّرة المنزل. احتضنته بين ذراعيّ وكأنّني لم أره منذ زمنٍ بعيد، ثمّ طبعت على جبينه قبلة، كمن يعتذر عن ذنبٍ أو إساءة، ودخلتُ غرفتي وأنا في حالة ذهولٍ تامّ: هل كنت مع ماجد قبل قليل؟ هل قبّل يدي بشغف؟ هل قال إنّه ما زال يحبّني؟ هل...؟

9

ذرفت الكثير من الدموع منذ ذلك اليوم...

صلّيت كثيرًا كثيرًا، واستغفرت ربّي كثيرًا كثيرًا، وقطعت على نفسي العهود القاسية بأن لا أعاود ما اقترف قلبي، وأن أواري ماجد في كهف ذاكرتي للأبد.

كنت في منتهى الصدق وأنا أحدّث نفسي بذلك، وكنتُ أعوّل كثيرًا على إرادتي التي لم تخذلني قبل اليوم.

ولكن، كنت ما إن ألمح رقمه على شاشة هاتفي حتى أتساقط ضعفًا مثل أوراق الخريف، فتلعب بي رياح أشواقه كما يحلو لها.

كان لا بدّ للقائنا الأخير هذا من أن يزيد حكايتنا تعقيدًا، ويغيّر في نمط علاقتنا بعدما ورّطنا بمشاعر أكثر وضوحًا وجرأة. صرنا نتبادل الأشواق والحنين علانيةً، ونتحاشى العبور على رصيف الأسئلة التي لا جواب لها.

أصبح ماجد أكثر قربًا منّي ومن خصوصيّاتي ومن أخباري الحميمة. وأصبحت أنا أكثر بعدًا عن نفسي، وعن ندى التي كنتها قبل عودته. ولكنّني كنت أحاول جاهدةً أن أحافظ على قربي من أحمد وعلى دفء علاقتنا، فلم أكن أحتمل فكرة إيذائي له أبدًا.

وفي خضمّ هذه التجاذبات النفسيّة والعاطفيّة، كان ماجد يبحث عن طريقٍ يجمعني به، ويرمّم أحلامنا التي هشّمها الزمن. لعلّه كان سعيدًا بتواصلنا العاطفيّ عن بعد، وبالتخاطر الواضح في ما بيننا، ولكنّ كلّ ذلك لم يكن ليلبّي حاجات رجلٍ عاشق لا يؤمن بالحبّ خارج منطق الحسّ والجسد. لذلك كان لا بدّ من أن يراني بعينيه، ويلمسني بيديه ليشعر بتفاعل عينيّ مع نظراته ولمساته.

عاد ماجد إلى بيروت بعد فترة وجيزة. كانت زيارةً عاطفيّة بامتياز، قرّر أن ينفقها معي على قدر ما يسمح له وقتي بذلك. لم أكن قد أعطيته موافقةً صريحة، بل رحت أتذرّع ببعض التردّد النسائي المشوّق. ومع ذلك فلقد جاءني على عجل وقلبه يخفق في صدره، كطائرٍ بحريّ تعب من كثرة الترحال.

كان يدرك جيّدًا أنّني لستُ شاغرة، وأنّ انشغالاتي الوظيفيّة والعائليّة لن تسمح لي بالتفرّغ له، ومع ذلك لم يوفّر المحاولة.

نسيت يومها كلّ العهود التي قطعتها على نفسي من قبل، ومحوت من ذاكرتي كلّ دموع الندم التي رافقت صلواتي في الأيّام الماضية. في لحظةٍ واحدة نسيت كلّ شيء ولم أفكّر سوى بأنّي سأبحر في عينيه من جديد.

لم يكن سهلًا بالنسبة إليّ أن ألتقيه في مكان عام، وخاصّةً أنّني أمضيت الوقت خلال لقائي السابق معه وأنا أتلفّت يمينًا ويسارًا مخافة أن يصادفني أحد معارفي. كنت أريد لنا هذه المرّة لقاءً هادئًا وآمنًا وبعيدًا عن الأنظار، لقاءً يعوّض أشواقنا المتعبة. ولكن لم تكن كافّة الخيارات في متناولي. فوافقت ماجد أخيرًا على أن يمرّ عليّ في المكتب ويصطحبني بسيّارته إلى مطعمٍ صغيرٍ

في الجبل، ناءٍ بعض الشيء، وقليل الازدحام، حيث يمكننا أن نكون بمأمن من عيون الناس.

كنت أعلم تمامًا أنّي قد بدأت أطرق باب الخطر، وأنّي قد لا أجد من ينقذني من كذبي بعد ذلك. ولكنّي لم أكن أبالي.

كنت مسكونةً بهوس لقائه، وبمتعة المكوث في أحضان عينيه. لم أكترث بالملفّات المتراكمة على مكتبي بانتظار أن أطّلع عليها، ولا بعيون زميلاتي اللواتي قد يلاحظن خروجي في سيّارةٍ لم يروها من قبل. كنت أعدّ الدقائق فقط بانتظار حلول موعد الانصراف، وجوارحي ترتعش خوفًا وشوقًا وفرحًا. أسرح تارةً وأبتسم تارةً أخرى، ثمّ أنظر في المرآة بعدما أغدقتُ على مظهري الكثير من اللمسات المميّزة، وتفنّنت في أن أبدو أنثى باذخة الإغراء والجمال.

ثمّ دقّت ساعة الصفر، وتوقّفت الـ«بي. أم. دبليو» أمام المدخل الخلفيّ للمكتب. هرعت إليه ومؤشّر نبضي قد تجاوز الألف، وصعدت بسرعة إلى السيّارة.

كانت بانتظاري فوق المقعد باقة ورودٍ ملوّنة، برائحةٍ فردوسيّة.

جلست بقربه وأنا أخشى النظر في عينيه. حيّيته دون أن أصافحه، ودون أن أترك على خدّه بصمات شفتيّ، كما ظننت أنّي سأفعل حال اقترابي منه.

أمّا هو، فلقد فعل... أمسك باقة الورد بيديه ووضعها في حضني، ثمّ صوّب إليّ مسدّس نظراته، وأطلق على خديّ نصف قبلة من العيار المتوسّط، واحتفظ بنصفها الآخر إلى الجولة اللاحقة.

وأنا، دون أن أسجّل أيّ اعتراضٍ أو تذمّر، شكرته بلساني على الورد، وبقلبي على القبلة، وأرخيت عليّ شال حبّه الدافئ وغرقتُ في أحلامي.

كم كنت مشتاقةً لأن أجلس قربه، على بعد سنتيمتراتٍ من وهج جسده، وأن أعبر كلّ تلك الدروب معه، وأصغي إليه وهو يحدّثني صمتًا، ويداعبني بعينيه.

قادتنا السيّارة باتجاه الجبل، نحو أماكن رومنسيّة لا تصلح إلّا للحبّ. كنت أزداد خوفًا كلّما أمعنّا صعودًا، فيما تزداد ملامح ماجد بريقًا وسعادة وابتهاجًا. راقبت كفّه التي لم تفارق يدي مذ جلست بجواره، تلك الكفّ التي كانت تتحسّس ملمس يدي الناعمة، وحرارة أشواقي المتوهّجة، وتتوعّدني بالكثير من الحبّ والجنون. تأكّدت حينها من أنّني لست الوحيدة التي اختلفت في السنوات الماضية. فماجد أيضًا قد اختلف كثيرًا. فلقد زاده العمر طفولةً وشقاوة وتمرّدًا، وتراكمت على شفتيه رغباتٌ مبهمة، وتنصّل منه حياؤه البدويّ. كيف سأتمكّن من أن أقاوم هجوم أشواقه، وهو الذي أقسم أن يعيدني إلى حدود قلبه وممتلكاته، مهما كلّفه الأمر.

كان الربيع يملأ الحقول الممتدّة على طرفي الطريق، والسحب الزاهية تتناثر هنا وهناك في كبد السماء، وماجد يقود ببطء، ويردّد مع عبد الرّب إدريس، «ليلة لو باقي ليلة...»، فهل لي إلى بعض صمودٍ وبعض صدودٍ من سبيل، حتى أدحر بهما إغراء الحبّ الذي يتسلّى بضعفي ويزيّن لي محاسن طلّته؟

لم أتحدّث كثيرًا كما كنت أتوقّع. فقد كنت أظنّ أنّني لن أتوقف عن الكلام لحظةً واحدة، وأنّني سأفرغ في قلب ماجد كلّ ما كان في جعبتي طيلة السنوات التسع الماضية. ولكنّني اكتفيت بالإنصات إليه وكأنّني لم أعثر بعد على الجمل، فيما لم تتوقّف

أغنيته المفضّلة، بعدما أعمل زرّ التكرار الأوتوماتيكي في مسجّل سيّارته.

كان في أعلى درجات الفرح والاشتياق والشغف. وكنت أعلم بأنّي لست بمأمن من ثورانه الداخلي. فتعمّدت أن آتي بأحمد في طيّات الحوار، لعلّي أخمد شيئًا من نيرانه. كنت غالبًا ما أذكر له أحمد على الهاتف، وأستفيض بوصف حبّي له وعلاقتنا التي يكلّلها الرقيّ والتفاهم، دون أن أتمكّن من رصد تلوّن وجهه، وامتقاع عينيه.

أمّا وجهًا لوجه، فقد كان من السهل جدًّا رسم دوائر حول علامات استيائه، ووضع خطّين تحت انزعاج عينيه، وملء الفراغ بما يناسب تعكّر مزاجه. لاحظت أيضًا كيف كان يهرب بنظره عبر النافذة، ويحاول أن يحيد عن خطّ الحديث بأيّ وسيلة.

فجأةً أوقف ماجد السيّارة ليسألني عما إذا كنت أرغب بشرابٍ بارد. ولكنّي لم أكن أشعر عندها بأيّ جوعٍ أو عطش، ولم يمسسني أيّ شعورٍ بالإرهاق أو التعب.

كنت فقط أتضوّر حبًّا وخوفًا بعدما نسيت أنّني سأكون على موعدٍ قريب مع حبٍّ آخر ينتظرني في المنزل لدى عودتي، وعليّ أن أدّخر له شيئًا من طاقتي وشهيّتي ومرحي.

ترجّل ماجد من السيّارة وذهب باتجاه المتجر المجاور، متجنّبًا الاستماع إلى سيرة أحمد وعاد بعد دقائق مرتديًا وجهه الباسم، وفي يده قنّينتَي ماء وبعض الشوكولا.

كان الماء له، ليبرّد قليلًا حرارة أشواقه، والشوكولا لي طبعًا، ليعدّل مزاجي، فلا بدّ من أنّه لا يزال يذكر أنّ الشوكولا كان نقطة

ضعفي الأولى. ثم جلس في مقعده، واقترب منّي ليضع في فمي قطعة صغيرة من الشوكولا.

لا أدري إن كان قد اتّخذ من تلك الحركة المفاجئة ذريعةً لكي يقترب منّي إلى هذا الحدّ، أم كانت عفويّة تصرّفه آنذاك هي الشرارة التي دفعته إلى حافة الجنون، دون أيّ مقاومة منه، وإذا بذراعيه تلتفّان حول جسدي الصغير، وتلتهمان كلّ بقايا أشواقي وكلّ فتات براءتي.

وكأنّني لم أكن على قيد الحياة قبل عناقه ذاك، وكأنّ الحبّ لم يكتشفني بعد، ولم يختبر تمرّدي وجنوني، وكأنّني لم أُصرع بقبلةٍ من قبل، ولم أحيَ بقبلةٍ من قبل. وجدتني على حافة أنفاسه، أتنفّس عشقه من جديد، وأُبعث بين شفتيه من جديد، وأشهد ولادة جسدي، وتفتّح حواسّي بين يديه من جديد.

آه ما أظلم بُعده! وما أفقر الحبّ بدونه!

لا أدري كيف أخرسنا الكلام، وأنطقتنا حرارة قبلة.

ولا أدري كيف أظمأنا الحبّ، وكيف أروتنا قبلة.

تلك القبلة التي شهدت دمارنا، وشهدت عليها كلّ جوارحنا، لم تمهلنا طويلاً، بل كتبت علينا فراقًا أبديًّا لا رجعة فيه أبدًا.

انتهى صراع الوقت مع تلك القبلة العاصفة، وانتهى الزمن المخصّص للحبّ. فهل حدث لقبلةٍ بدفء قبلتنا وروعتها أن هدّدت قبل اليوم عرش الحبّ؟ ألم نسمع ونقرأ عن قبلٍ أسطوريّة أنقذت ملوكًا وأحيت ملكات؟ فما بال قبلتنا تغتالنا وتزلزل من تحتنا كلّ مدماكٍ رصفه الحبّ لنا؟

انتهى صراع الحبّ مع تلك القبلة العاصفة. كانت أروع ما حدث لنا، وأقسى ما ألمّ بنا.

لا أدري كيف لملمنا ما بقي منّا، مع أنّنا خرجنا منها بأكثر الخسائر الممكنة. ولا أدري كيف أوقفنا زوابعها بعدما أوشكت أن تدمّر كلّ ما شيّدناه لذلك الحبّ.

كان صوت عبد الربّ إدريس لا يزال يتعالى في جهاز التسجيل، وكانت السحب البيضاء الكثيفة لا تزال تتعانق في السماء حين استفقنا من ذلك الكابوس، لنكتشف أنّنا كنّا أضعف بكثير ممّا نتوقع، وأنّنا لن نفلح أبدًا في إطفاء ذلك الرماد الذي يعشّش فينا منذ أكثر من تسعة أعوام.

لعلّ ماجد لم يرد لقبلةٍ بحجم سنواتٍ تسعة أن تنطفئ. فلقد كان منتشيًا حتى الثمالة وهو يعثر على آخر أحلام الحبّ التي قد أضاعها منذ زمن بعيد.

ولعلّي لم أشأ أنا أيضًا أن أخذل العمر وهو في أحضان قبلة، ولكنّني لم أشعر إلّا بقلبي وقد توقّف. كان أحمد يقف أمام بوّابة أفكاري ويطرق بقوّة على نافذة قلبي، ويهمس في سمعي: «هيّا أفيقي... تعالي إليّ... فأنا كهفك... تعالي... أنا أنتظرك... لا تتأخري...».

فهل كان عليّ أن أخسره بعدما خسرت مبادئي وطهارتي عند عتبات ماجد؟

لا أدري كيف انتهينا وكيف صمتنا، وكيف عدنا أدراجنا على دروب الخيبة والألم، ولكنّنا في النهاية عدنا.

عادت بنا السيّارة إلى بيروت من حيث لا ندري. وكان الصمت سيّد الموقف.

لم يعتذر ماجد عمّا حدث. لم يشرح ولم يسوّغ. تسمّرت عيناه على الطريق الذي كان يقود خطانا بعجز، ولم ينبس ببنت شفة.

لن أنسى يومًا دفء قبلته تلك، ولا حنوّ نظرته الوالهة وهو ينظر في عينيّ وكأنّه يستجديني لكي أبقى معه. لعلّه أدرك متأخّرًا فداحة خطئه، عندما انقاد خلف ذاكرته واستسلم لرغبتها وجنونها، وهي تردّد على مسامعه مكرًا: «أن تأتي متأخّرًا خيرٌ لك من أن لا تأتي أبدًا»...

فلقد أراد أن يثأر بتلك القبلة لعطش الحبّ الذي ألمّ به بعيدًا عنّي، إلا أنّه سرعان ما شعر بحبل الندم يلتفّ حول عنقه، ليقتصّ منه. ولعلّه ظنّ أنّ بإمكانه أن يستعيدني بقبلة، ولكنّه سرعان ما خسرني بسببها.

ها أنا قد انتهيتُ من حياته إلى الأبد. ولماذا أبقى؟ ليتسبّب لي بجرحٍ جديد أبشع من كلّ الجراح التي عمّدني فيها من قبل؟

هل كان ينقصني وجعٌ آخر يضيفه بخطّ يده على سجلّ ذاكرتي لتسع سنوات آتية؟ أما كان يجدر به أن يمشي بعكس الريح، وأن يُكذّب ذلك القول الخدّاع، ويقنع ذاكرته بأن لا تأتي أبدًا، خيرٌ من أن تأتي بعد فوات الأوان، فتفسدَ كلّ التفاصيل الجميلة التي صنعها غيرك، وتمعن فيها خرابًا قاتلًا؟

في ذلك الطريق اللامتناهي، لم يكن في حوزتي سوى الدموع المريرة التي احتبست في عينيّ، والتي كاد لهيبها أن يمزّقني ألمًا وندمًا ورعبًا.

ها نحن نعود معًا بكلّ خساراتنا، وبكلّ خيباتنا، ونلوم الحبّ على خديعته لنا، ونغضب منه على استدراجنا نحو المربّع الأخير، في الجولة الأخيرة من هزيمتنا.

فهل كان هو الجاني؟

أعترف بأنّني قد هُزمت، وبقوة. وأعترف بأنّني لن أتمكّن يومًا من ترميم صورتي في إطار ذاكرتي بعدما تحطّمت تحت أقدام رغباتي.

ها أنا قد عدتُ من آخر لقاءات الحبّ بقلبٍ معطوب، وذاكرةٍ ملوّثة، وجرحٍ يستنزف كلّ ذرّةٍ في روحي، فهل سأشفى يومًا من خطيئتي؟ وهل سأغفر لنفسي جريمتها بحقّ أحمد وحسن؟ أم هل أتعافى من ألم الضمير الذي لا يزال ينخر في كلّ أجزائي؟

وصلت بنا السيّارة أخيرًا مدخل العمارة. لا شيء مختلفًا عمّا سبق.

نزلت من السيّارة دون أن أنطق بحرفٍ واحد. كانت عينا ماجد الدامعتان تقرآن على قلبي كلّ مزامير الاستغفار والتوبة وتهمسان لي بصمت: لا ترحلي...

إلّا أنّني غادرته على عجل، ولم أنظر خلفي مطلقًا.

رحل ماجد في ذلك اليوم حزينًا، ومحمّلًا بالخيبة، ولا أظنّه سيعود في يومٍ من الأيّام. وما زلت حتّى اليوم أجهل أسباب عودته في نوفمبر الماضي، وأجهل أسباب عينيه الماطرتين.

ها أنا ذي في اليوم الخامس والعشرين من نوفمبر 2013، أجلس على الشرفة مقابل المقهى، على مسافة عامٍ من الذكرى، أراقب المطر، بانتظار عودة أحمد من العمل، لأزرع في جبينه ما بقي من وردات اعتذاري عن اثني عشر شهرًا قد خلت، ولأتلو على مسامع قلبه آيات استغفاري صمتًا، بعدما تعذّر على لساني الاعتراف بها جهرًا، لعلّي أفوز بغفرانه يومًا، ولعلّي أمحو من ذاكرتي ذلك الوشم القبيح الذي ما زال ينكشف لي من وقتٍ لآخر ويخطّ أمامي بحروفٍ مبعثرة اسم ماجد.

تمّت في 25 نوفمبر 2013